

اعداد مكتبة الروضة الحيدرية المكتبة الرقمية

الرسالة الأولى
الجزء الأول

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة
كلية الاداب \ قسم اللغة العربية

الأداء البياني في خطب الحرب في نهج البلاغة

رسالة تقدمت بها
نجلاء عبد الحسين عليوي الغزالي

الى
مجلس كلية الاداب- قسم اللغة العربية وهي جزء من متطلبات
نيل درجة الماجستير في اللغة العربية و أدابها

بإشراف
الاستاذ الدكتور حاكم حبيب الكريطي

٢٠٠٢م

١٤٢٣هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي
الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ
فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ

صدق الله العلي العظيم

الشورى / ٢٣

الشكر والتقدير

اتوجه بالشكر إلى السيد عميد كلية الآداب، **الدكتور كاظم عويز الهاشمي**، الذي وقف مؤازراً قبولي فذلل الصعاب وفتح امامي السبل، وإلى الأستاذة **الدكتورة سهيلة مزبان** التي كانت ترفدني بالنصح والأرشاد... فجزاهما الله ألف خير ...

ولا يسعني الا ان اتقدم بجزيل شكري ووافر تقديري لأستاذي ومعلمي الأول **الدكتور حاكم حبيب الكريطي** "السراج المنير" لموافقته على الإشراف على اعداد هذا البحث ، ولما ابداه لي من توجيهات سديدة على رغم من مشاغله وضيق وقته، وفقه الله وابقاه في سماء العلم نجماً لامعاً...

كما اتوجه بالشكر والعرفان إلى العلامة **الأستاذ الدكتور محمد حسين علي الصغير**، فهو من أزرني وعمق في حب البلاغة العربية، فضلاً عما اولاني به من كرم خلقه ورصانة علمه الكثير، ولما بذله من جهد كبير ووقت غير محدود، وتوجيهات علمية دقيقة... أطال الله في عمره...

كما اتفضل بالشكر والتقدير الى استاذي ومعلمي **الدكتور عبد الجبار عبد الأمير هاني** لما ابداه لي من ملاحظات قيمة... فجزاه الله عني افضل جزاء المحسنين.

وأخصّ بالشكر كل من وقف معي بالنصح والأرشاد والرأي والاسناد، من زملائي في الدراسات العليا، وأخصّ بالذكر الزميلة **مديحة خضير**، والزميلين **عبد الحسن جدوع** و**عبد علي حسن ناعور**.

واشكر الدراسات العليا في كلية الآداب، والقائمين على المكتبة المركزية ومكتبة كلية الآداب ومكتبة الإمام الحكيم العامة ومكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة فجزاهم الله خيراً .

وجزيل الشكر إلى كل من وقف معي من أسرتي (علاء الدين، بهاء الدين، وفاء، رغداء، رنا، نداء، مروان، مروة).

والله الموفق للصواب والهادي إلى الخير وهو حسبي عليه توكلت واليه أنيب.

الباحثة

الفهرست

الموضوع	الرقم
المبحث الثاني: الوظيفة العقلية.....	١٢٦
المبحث الثالث: الوظيفة الدينية.....	١٣٢
١- ظاهرة الدعاء.....	١٣٤
٢- ظاهرة الحث على الجهاد.....	١٣٧
الخاتمة.....	١٤٥
المصادر والمراجع.....	١٥٠

التمهيد

مدخل الى الأداء البياني

جاء القرآن الكريم ليؤكد أهمية علم البيان بقوله سبحانه وتعالى [خَلَقَ الْإِنْسَانَ (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)]^(١)، فيه ((تستخرج الحقائق ويتوصل إلى معرفة الخلائق، وقد عدّه الله علينا من الآئه وجعله من آيات نبيه، فكان □ من افصح العرب بيانا، واطلقهم بالخير لسانا، وادلاهم بحجة وانطقهم بحكمه، وانظمهم بخطبه، ووصفه عز وجل بالبيان فقال: [لُتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] (النحل- ٤٤)^(٢) وقد روي عنه □ قوله ((ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة))^(٣)، ليؤكد أهمية البيان في التأثير في السامعين فكان السامع ينبهر بحسن البيان، فيبدو وكأنه يسمع سحرا.

ومن ثم وردت تعريفات، بحثت علم البيان بالمعنى العام، ضمن اقسام البلاغة الأخرى من معان وبديع فقد نظر إليه بوصفه صفة جمالية ويكون في المعنى الجليل والعبارات المؤثرة التي تتوجه إلى العقل والخيال معاً. ويمكن ان يكون الجاحظ اول من تكلم عن البيان بقوله: ((لان مدار الامر والغاية التي يجري القائل والسامع انما هو الفهم والافهام، فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع))^(٤). وعلى هذا ترد اصول المباحث البلاغية إلى مؤلفات الجاحظ، غير ان من وضع أصول وأسس علم البيان هو عبد القاهر الجرجاني، اذ قال: ((انك لا ترى علماً هو أرسخ اصلاً وأبسق فرعاً واحلى جنى واعذب ورداً واكرم نتاجاً وأنور سراجاً من علم البيان))^(٥).

علم البيان كما يعرفه علماء البلاغة^(٦)، هو الفن الذي نستعين به على التعبير عن المعاني بصور مختلفة، بأقسامه الاربعة، التشبيه والمجاز -المرسل والعقلي- والاستعارة والكناية، والهدف الذي يرمي إليه -علم البيان- هو الابانة والوضوح، وضوح الدلالة، وقوة الأداء. وهو بهذا لا يختلف عن معنى البيان لغوياً، فهو بمعنى ((الافصاح والظهور والكشف والايضاح... والبين الفصيح))^(٧).

مادة البيان المتمثلة في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية وهي ((البلاغة بعينها، وتلك هي الأصول الكبرى والنبابيع الأولى لفن القول، فيها يتقوم الجهد البلاغي الموروث، وعليها تدور رحي البلاغة العربية))^(٨).

وكما يبدو ان الفكرة البيانية تتنامى في ذهن قائلها ثم يتفنن صاحبها في وسيلة اعلانها إلى الناس، وبقدر ما يكون التوافق بين مدلول الفكرة ومستوى السامع تكون الفكرة واضحة ومقبولة وبخلاف ذلك تكون غامضة وغير مفيدة. فالاسلوب البياني يمثل طريقة خاصة من طرق التعبير عن الذات، وتصوير مشاعرها وافكارها علماً ان الأداء البياني لاياتي أي شخص ((ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن في الوصول اليه، فما كل احد يفلح في شق الصدفة ويكون في ذلك من اهل المعرفة))^(٩).

ترد عناصر الأداء البياني ممتزجة مع التجربة الشعورية، ومعبرة عنها بأساليب ابداعية مؤثرة سواء عند

(١) سورة الرحمن/ ٤، ٣.

(٢) احكام صنعة الكلام: ٣٢.

(٣) التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول: ٥/ ٢٨٢، ظ: البيان والتبيين: ١/ ٣٤٩.

(٤) البيان والتبيين: ١/ ٧٦.

(٥) دلائل الاعجاز: ٤.

(٦) ظ: التلخيص في علوم البلاغة: ٢٣٥، ٢٣٦.

(٧) لسان العرب: مادة "بان".

(٨) اصول البيان العربي: ٢٧.

(٩) اسرار البلاغة: ١٢٨.

الشاعر او الكاتب.
وقد عدت الفنون البيانية اكثر قدرة على الكشف عما في الالفاظ من امكانات كامنة على وفق علاقات صياغة خاصة، يحددها نوع الفن البياني.

والخطابة فن اصيل عند العرب اصالة الفصاحة والبيان عندهم، فهي ((الفن الكلامي الذي يعد أنسب الفنون لقوة الارادة، ولذلك تعدّ فناً عملياً، وهي تجمع بين قوتي الاقتناع والتأثير اللذين يدفعان إلى العمل الحاسم))^(١٠)، فالخطيب يستعمل جميع الأشياء التي لها تأثير في التصديق والاقتناع وتثبيت الأشياء التي يراد تثبيتها بطريق الخطابة^(١١).

لقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي حافلة بفنون البيان من تشبيه بليغ واستعارة جميلة وكناية مستملحة ومجاز مستظرف، وكل هذه الفنون البيانية كانت تأتي عفواً، فقد عدّ ((رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الأعراب، وبهاؤها تخير الالفاظ))^(١٢)، لأن الأسلوب الخطابي في حاجة إلى اثاره الشعور، ولأن الوضوح وحده لا يكفي فالوضوح يكفل الاقتناع، اما قوة الأسلوب فيكفل الاستمالة وتوجيه السامعين إلى الهدف الذي يقصده الخطيب، وعليه فقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي ذات حظ من القوة والتأثير. وقد أدى تدوينها في القرن الثاني إلى ضياع كثير منها، ولكن ما وصل منها يدل دلالة بيّنة على ما كانت عليه الخطابة الجاهلية من رقي وأزدهار. فقد كان لها شأن عظيم، فتعددت مناسباتها وتنوعت اغراضها وموضوعاتها، اذ كانوا يستعملونها في منازعاتهم ومنازعاتهم وفي النصيح والارشاد وفي الحث على القتال وفي مناسباتهم الاجتماعية^(١٣).

كانت الخطابة تأتي بعد الشعر عند العرب في العصر الجاهلي، ولكن بعدما جاء الاسلام وأصبحت حاجة المسلمين إلى الخطابة أكثر^(١٤)، لما اشتهروا به من الفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما في انفسهم. ومن بين أنواع الخطابة التي عرفت في العصر الجاهلي خطبة الحرب فهي تبعث العزيمة في نفوس الفرسان، واذكاء حماسهم وتبشيرهم بالنصر، وبث الثقة وتهوين الموت فالعبارة البليغة قد تقدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من همة، علماً ان الخطب الحربية لا يلائمها الا الارتجال، وحيثما كانت اثاره واستمالة وعاطفة متدفقة كان الارتجال وسيلة الخطيب، بقوة عاطفته وحماسه إلى دعوته، فسرعان ماتمترج نفوس السامعين بنفسه وتندفع الوجهة التي يريد بها.

فالخطابة فن جاهلي زاده الاسلام رونقاً وبلاغة وارتقاءً نظراً لجاجة المسلمين اليها، فقد اصبحت كل خطبة عبارة

عن قطعة بلاغية بجانب كونها نثراً سياسياً ومعالجة تربوية واخلاقية وتنقيفية

ولمجاراة الخطباء أسلوب القرآن في الارشاد والاقتناع، مما أدى إلى زيادة الخطابة قوة ووقوعاً في النفوس، لاستنهاضهم الهمم^(١٥). فقد اخذ الخطباء يضمنون خطبهم معاني الحكمة، والصدق، والحق، والخير، وكل ما في الاسلام من معان سامية وجليّة.

كان أول الخطباء في عصر صدر الاسلام الرسول محمد ﷺ فقد جاءت خطبه على مجرى من البلاغة والبيان وقوة العبارة ومثانة السبك، والدلالة على المعنى. لم يرجع الرسول إلى قاعدة مكتوبة أو قانون مرسوم فهو يعرف مواقع القول ومرامي الكلام على هدى من فطره^(١٦).

فقد كانت على جانب رفيع من البلاغة والفحولة البيانية، وبدت الالفاظ في خدمة المعاني والمبادئ السامية، وعليه

اصبحت الخطبة حينئذ اقرب إلى الحياة الواقعية من الخطب الجاهلية.

(١٠) الأسلوب: ٢٣.

(١١) ظ: تلخيص الخطابة: ٦.

(١٢) البيان والتبيين: ٤٤/١.

(١٣) ظ: تاريخ الطبري: ١٠٩١/١، البيان والتبيين: ٥٣/١، ١١٦، ٢٧٣، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٦٥، العقد الفريد: ٥٩/٤، الاغانى: ١٥/١٥، ٧٠.

(١٤) ((كان الشاعر ارفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج، لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب اعظم قدراً من الشاعر)) البيان والتبيين: ٨٣/٤.

(١٥) ظ: الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ٤١.

(١٦) ظ: الخطب والمواعظ: ١٠.

وقد اتخذت الخطب فيما بعد المنهج الذي نهجه الرسول ﷺ في بناء الخطبة من بدئها بالتحميد والتمجيد والتوشيح بأي القرآن الكريم، و ببعض الأحاديث النبوية، والأمثال والحكم العربية^(١٧).
كان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في الذروة من الفصاحة والبلاغة، إذ سرى في نفسه بيان القرآن بترغيه وترهيبه، وبيان الرسول ﷺ بمواعظه وتشريعاته، وقد اشتهر الإمام علي ﷺ في الأدب العربي ببلاغته فقد ورد ذكر الكثير من شذرات نهج البلاغة في بطون الكتب والمؤلفات، أما الخطب التي ألفها في اتباعه فأكثر الخطب العربية بلاغة وصدقاً^(١٨). وقد تناولت خطبه ﷺ أغراضاً شتى، ولكن، الغالب عليها خطبة الحرب، نظراً للصعاب والحروب التي تعرض لها الإمام في عهد خلافته والتي دامت أربع سنوات وتسعة أشهر^(١٩)، خاض الإمام ﷺ في خضمها ثلاث معارك وهي على التوالي: معركة الجمل (٣٦هـ)، ومعركة صفين^(٢٠) (٣٦، ٣٧هـ)، وفي تلك الأثناء دبَّ التخالف في جماعة الإمام وأصحابه فحدثت معركة النهروان (٣٨هـ).

فمن الطبيعي أن تنسم خطبه ﷺ بالطابع الحربي، والجهادي، والجدلي، لشدة معارضيه من أصحابه وخصومه. ولقد كان للإمام (مقام محمود في احقاق الحق وإقامة الحدود ونصرة المظلومين وقد صرح بذلك في قوله وعمله في جميع ادوار حياته المملوءة بصالح الاعمال)^(٢١).

تتجلى بلاغة الإمام في خطبه -الحربية- بقدرته على اعطاء الكلمة زخماً من المعاني بنقله من خلال الأسلوب التصويري من مجرد السمع إلى مشاهد وذلك باستعماله للفنون البيانية فالإمام يهدف إلى قوة تأثيره في عقول سامعيه وقلوبهم، وقد ابدع ﷺ في التعبير عما كان يعانيه، فقد عدت تعبيراً عن الصدى العميق الذي يترجح في نفسه بتأثير الطوارئ السياسية.

وما عُرف عن خطب الحرب -خاصة- كان ﷺ يوقظ العقول الخاملة ويبعث الشعور بالحماسة، ويثير العواطف في نفوس أصحابه من مساندين ومخالفين، فقد استعمل ﷺ الفكر والوجدان ونفذ من خالهما إلى أصحابه، فقد كان الإمام يأخذ المعنى الواحد ويعرضه علينا في عدة صور بيانية مختلفة، ف«التكرار المعنوي جائز في الخطابة لتثبيت الأفكار في الأذهان وتمكين السامعين من الفهم والقوة والتأثير»^(٢٢).

وكما يبدو أن في خطب الحرب للإمام ﷺ نزعات ثلاث متباينة دينية وسياسية وبلاغية، و«البلاغية» تخدمهما وتضاعف من وقعهما^(٢٣). فقد كان ﷺ ينطق بلسان الحكمة والتجربة الحربية، فضلاً عن معرفته لغة أمته، فقد كان عارفاً لأذواق مستمعيه، فلم يتخل عن نزعه الخطابية سواء أكان ذلك في مواضع السخط والنقمة أم في مواضع الرضا واللين.

أدب الإمام علي ﷺ أدب إسلامي، نابع من ذهنية إسلامية صاغها أدب القرآن الكريم والحديث النبوي وثقافته فهو «الإمام في الأدب كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علم وهدى، وآيته في ذلك «نهج البلاغة»^(٢٤).

«نهج البلاغة» الذي شرح نحو أربعين مرة، وترجمت منه فصول إلى بعض اللغات الشرقية والغربية، وفتح أمام النقد أبواباً ومذاهب وهو أكبر وأشهر مجموعة حفظت تعود إلى عصر الخلفاء الراشدين، ولم تخل منه مكتبة عربية أو أعجمية من المكتبات التي تستوفي أصول المراجع، وحتى مفنديه لم ينكروا قيمته الأدبية.... إن ذكرت تلك الخصائص عرفنا أن «الشريف الرضي» خدم الأدب واللغة والخلق بجمع أصول ذلك الكتاب^(٢٥).

وعلى هذا فقد كان للإمام ﷺ أهدافاً قصدها وسعى إلى تحقيقها -في خطبة الحرب- فهو يدعو لنور الحق ويلوذ به، غامراً ذلك كله بتلك الحلة البيانية، التي تخرج الأفكار مهما كانت عميقة في روعة من الرونق والجمال فهو بحق «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق» فقد راعى ﷺ المقام والمناسبة والمطلوب.

(١٧) ظ: نقد النثر: ٩٥.

(١٨) ظ: في النقد والأدب: ١٠٠/٢.

(١٩) ظ: الكامل في التاريخ: ١٠٥/٣، ١١٣، ١٤١، ١٨٧، ١٩٩.

(٢٠) من أهم معارك الإمام دامت مئة يوم وعشرة أيام. ظ: وقعة صفين: ٢٣/١.

(٢١) أضواء على السنة المحمدية: ٢٠٤/٢.

(٢٢) الأسلوب: ١١٨.

(٢٣) ظ: في النقد والأدب: ١١٥/٢.

(٢٤) روائع نهج البلاغة: ٨، ٧.

(٢٥) ظ: عبقريّة الشريف الرضي: ٢٢٥/١.

وقد عدت خطبه □ مدارس لتعليم الأدب واجادة اللغة^(٢٦) وهذا هو رجل التضحية والجهاد، صاحب القيم الروحية والانسانية.

(٢٦) ظ: الأدب في موكب الحضارة: كتاب النشر: ١٩٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين... وبعد

فقد تأثرت الخطابة الاسلامية بالظاهرة البلاغية التي أشرقت في الديباجة القرآنية والاحاديث النبوية، مرتفعة بالاسلوب الفني في الأدب العربي - إلى مستوى فني وثقافي لم نألفه في العصر الجاهلي- إلى ذروة الاعجاز، وهي - الخطابة- الوسيلة الوحيدة لبث الافكار والدعوات.

أصبح الخطيب انذاك مقدماً على الشاعر لفرط حاجة الناس إلى الخطابة لتوطيد اركان الاسلام وبسط سلطانه في الوعظ والارشاد لما فيه من فلاح للناس في الدنيا والاخرة، فضلاً عن استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء.

و"نهج البلاغة" يمثل اثراً من الآثار الفنية في أدب الحضارة العربية الاسلامية، فكراً واسلوباً، ويعد تراثاً انسانياً لا تستأثر به طائفة من الناس دون أخرى، فهو وثيقة تاريخية أدبية، يأتي بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، في دقة البيان وروعة الاسلوب، وسمو الافكار.

أمير المؤمنين علي بن ابي طالب فتى الاسلام وربيب الرسول □ وصهره، كان خليفة وقائداً وخطيباً في آن معاً.

فهو الخليفة الذي يتحلى ابدأً بالوقار والرزانة، وهو الفارس الذي تعود ان يخوض غمار الحرب وينتصر للحق ويتفانى في سبيله فضلاً عما تركه من دروس بليغة. كما قال السيد الرئيس القائد صدام حسين (حفظه الله ورعاه) من حديث له ضد قوى الشر والباطل: ((اننا سنقاتلهم بسيف الامام علي □ دفاعاً عن المبادئ)) ، فسيف الإمام علي □ سيف الحق بلا شك، اما حين يخطب في اتباعه ومعارضيه، فيحس المرء أنه يتكلم من أعماق قلبه، ولا نكاد نخطئ

الاخلاص منبعثاً من ثنايا كلامه البليغ، فبلاغته □ ترافقه في جميع مواقفه حتى الارتجالية منها.

وقد وقع أختياري على خطب الحرب في نهج البلاغة للوقوف على ما فيها -من بيان- موضوعاً لرسالتي، لأنّ هذه الخطب غالباً ما تكون ارتجالية، لا مجال فيها للتكلف والعناية الفنية المتعمدة، وما فيها من بيان هو نتاج السليقة الصافية التي عُرف بها الإمام فكان نهجه فيها نهجاً للبلاغة حقاً.

خطب الإمام الحربية في حلتها البلاغية نشعر اننا امام اثر فني متكامل في روعة القول وقوة الحجة، وقد كانت شديدة اللهجة لانها صادرة عن قلب لا يخلو من الم، وقد اكسبها معاني التقوى والعبادة والعمل الصالح.

كانت الخطابة سلاحاً من اسلحة الإمام □ في حروبه فالبلاغة، قد تقعدهم او تقيمهم بما تنثيره في خواطرهم من النخوة، وقد تدرج الإمام □ في اثارة شعور سامعيه حتى وصل بهم إلى ما يصبو إليه وسلك إلى ذلك طريقاً تتوافر فيه بلاغة الاداء وقوة التأثير.

ولقد تصدى غير واحد من الدارسين المعاصرين "لنهج البلاغة" عامة والخطب خاصة، الا انها في حدود نحوية ولغوية وفنية، غير ان "الأداء البياني لخطب الحرب" احسبه لم يبحث كلاً بل هناك شذرات في بطون الكتب افدت من بعضها وتحدثت عن بعضها الآخر.

كانت المصادر والمراجع في البحث تعنى بكتب البلاغة والنقد والدلالة وكتب التفسير وعلوم القرآن، والحديث النبوي الشريف، والامثال فضلاً عن الموروث الأدبي عند العرب.

وقد استعنت بكتاب نهج البلاغة- شرح محمد عبده- في ضبط النصوص الخاصة بخطب الحرب، فضلاً عن شرح ابن ابي الحديد.

وقد انتظم البحث في ثلاثة فصول يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة.

فلما كان موضوع البحث يخص الأداء البياني من بين سائر انواع البلاغة الأخرى، والخطابة عامة وخطب الحرب خاصة عند الإمام □ جاء التمهيد مشتملاً على كلا الموضوعين وكان ترتيب الفصول كالآتي:

تكفل الفصل الأول : لبحث في مصادر الأداء البياني لهذه الخطب- خطب الحرب- وكانت مباحثه في؛

القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي ومن ثم الأمثال العربية.

وانصرف الفصل الثاني : بعناصر الأداء البياني في خطب الحرب في نهج البلاغة وجاء على اربعة

مباحث - التشبيه والمجاز بنوعيه - المرسل والعقلي - والاستعارة ومن ثم الكناية.

اما **الفصل الثالث**: فكان يبحث في وظائف الأداء البياني وقد جاءت الوظائف على النحو الآتي: الوظيفة

النفسية والوظيفة العقلية والوظيفة الدينية.

وجاءت خاتمة البحث، متضمنة اهم ما خلص إليه البحث من نتائج.

ومن ثم جاءت عدتي في البحث والتعليل والتحليل والاستنتاج، الا وهي المصادر القديمة والمراجع الحديثة.

وعليه فقد بذلت فيه طاقتي وكل مافي وسعي من جهد، وبعد ...

فقد كان من تمام نعمة الله عليّ بهذا البحث ان جعل اتمامه على يد الأستاذ المشرف الدكتور حاكم حبيب

الكريطي، فقد كان كالسراج المنير في طريق بحثي، وكانت له اليد البيضاء في الاصلاح والتنبيه، حد البكاء احياناً،

فجزاه الله عني افضل جزاء المحسنين.

وامتناني إلى كل من اعانني على اخراج هذا العمل الأدبي الذي ابتغي به وجه الله عز وجل والفوز بمرضاته.

[فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] (الزلزلة-٨،٧)

The Clarification Performance in Warfare Orations In Nahj Al-Balagha

Abstract

The Islamic oration was affected by rhetoric which was enlightened by the Holy Quran and the Prophet's Pure Talks to promote the art mode of the Arabic literature to such a remarkable level that couldn't be noticed in the pre-Islamic period. Thus, it reached the peak. Oration is the only means of spreading and establishing new thoughts and concepts.

At that time the orator became more comparable than the poet because oration was badly needed by people for establishing the principles of Islam and spreading its authority through preaching and directing them in the right way, and finally allow them to win what would enlighten their life on earth and after death. This also helped in uniting society, evoking determination and making enemies fear Islam.

“Nahj Al-Balagha” represents a remarkable feature in the Islamic literature, being a unique mode and principle for all. It is a historical literal document second to the Holy Quran and the Pure Prophet's Talks in gaining rhetorical accuracy and magnificent mode.

The Communder of the believers, Al- Imam Ali Bin Abi Talib, the henchman of Islam and the Prophet's son-in-law, was a caliph, a leader and a orator. He was the most revered and deliberate in manner; the knight who never hesitated to sacrifice for Islam and establish the good and right. He left behind unforgettable most effective literal inheritance for everyone and as our President Saddam Hussein (Allah may save and guard) said with regard of the evil forces “We are fighting them with the sword of Al-Imam Ali

(peace be on him) to protect principles”. Indeed it is the sword of the right and good. And when one looks deeply into his words, he recognizes his rhetoric orations emerging from the bottom of his heart that was not free from pain. These features appear in his oral and written orations.

The warfare orations of Al-Imam make us feel that we are in front of a perfect magnificent rhetoric wording emerging from the bottom of a heart with some pain, so you find it stressed wording. He included in it what expresses God fearing and God worshipping and good deed.

Oration was one of the Imam’s weapons in his fights. He used it, owing to its being rhetorical, to evoke his men and encourage them and arousing their feelings and making them reach the aim he wanted them to understand and be aware of.

I have chosen particularly the warfare orations in Nahj Al-Balagha to be aware of what they have from clarification. This is because those orations were often oral and none-officious, and free from any features of art. They are pure, so they represent the mode of the rhetorics.

Some recent investigators have dealt with “The Nahj Al-Balagha” in general, and the orations in particular, but they were in grammatical and linguistic and artistry limitations.

“The Clarification Performance in Warfare Orations” has not investigated the altogether content, but there are some bright images I utilized and some others I talked about.

The references regard books of rhetoric, criticism and indication; and interpretation books of the Holy Quran and the Prophet’s Talks sciences, and the proverbs as well as the Arabic literature cultural inheritance.

I depended on Nahj Al-Balagha (Mohammed Abda Explanation) in determining the texts regarding warfare orations; and I also made use of Ibn Abi Hadeed Explanation.

My research is arranged in three chapters proceeded by an a relusion and ended by a conclusion and as follows:

Chapter one deals with the clarification performance aspects in warfare orations in Nahj Al-Balagha and includes four researches: assimilation, similitude, personification and association.

Chapter two deals with the resources of the clarification performance of these orations - warfare orations - . The investigations are about The Holy Quran and the Pure Prophet's Talks and the Arabic poetry and then the Arabic proverbs.

Chapter three deals with the functions of the clarification performance which comes in sequence as: the mental function, the psychological function, and the religious function.

The conclusion includes: what the results that the research has arrived at.

Then comes my whole tool in investigation, analysis, justification, and conclusion. These are the old and the new references.

I have done my best and thanks to Allah I ended this research aided by Allah first, and by my supervisor Dr. Hakem Habeeb Al-Guraity who helped me much like a guiding torch in direction and reform.

My thanks and respect to all those who never hesitated to offer help.

الفصل الأول

المبحث الأول: القرآن الكريم

- ١ - الاستشهاد بالآيات القرآنية
- ٢ - انتقاء المفردة القرآنية
- ٣ - الالفاظ المتقابلة في الآيات القرآنية
- ٤ - الافادة من التركيب الجملي في القرآن

تأثير القرآن الكريم:

جاء الاسلام بمعجزته الكبرى، التي تحدى الله بها العرب قاطبة. فكانت فيه معان جديدة وأغراض جديدة، ومن ثم كانت فيها تشبيهات ومجازات واستعارات وكنيات لم يبلغها العرب، على الرغم من ذكاء قريحتهم وتقنهم في أساليب الكلام قبل الاسلام.

لقد كان تأثر المؤمنين بالقرآن من القوة؛ اذ حملهم على تغيير طباعهم وأوضاعهم وترك ما ورثوه عن آبائهم واجدادهم من عادات وتقاليد لا يقبلها الاسلام.

فـ ((قد كان للقرآن الكريم أثر كبير في العالم الأدبي والعلمي، فقد وحد اللغة العربية وحفظها ووسع نطاقها، وعمل على تليينها وتهذيبها، ثم أنه كان اساس العلوم اللغوية والبيانية عند العرب، وهو ابدأ المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة))^(٢٧)، فقد ترك أثراً في عقلية العرب ونفوسهم، فضلاً عن بعثه فيهم حساً جمالياً جديداً لم يكن مألوفاً فيما سبق من آثار الجاهليين، فزوله بأسلوب لا يبارى في قوة اقناعه وبلاغة تركيبه، ((أصبح معيناً للأدباء ينهلون منه ويقتبسون ويسعون إلى محاكاة أسلوبه، وكان اثره في النشر قويا، سواء من حيث الأسلوب والصياغة، أو من حيث الأفكار والمعاني، أو من حيث الصور والخييلة، هذا فضلاً عن اقتباس آيات منه، وتوشيح الخطب بها))^(٢٨)، فاصبحت الخطب الاسلامية تضيء عليها مسحة بلاغية مكتسبة من القرآن الكريم، ومن هنا جاءت خطب الإمام □ متأثرة بالطابع القرآني، تأثراً متداخلاً وكأنها تصدر عن القرآن.

وفي هذا الضوء يمكننا ان نعد القرآن الكريم المصدر الأول لثقافة الإمام □ ((الذي تأثر به وشرب آيه من طفولته وأيام النبوة وفي عصر الاشراف القرآني، وعلي □ هو الذي تلاه ووعاه وعرف سحر اعجازه، فما كان عند علي □ من بيان وقدرة فهي عن القرآن، مصدرها ، والقرآن مصدر من أفضل وأعظم المصادر للثقافة العربية))^(٢٩).

وسبب تمثل الإمام بالقرآن الكريم يعود إلى ((قربه من عصر الرسول □ وشدة تأثره بكتابه الكريم، ويضاف سبب آخر في تعليل شدة تأثر أسلوبه بالقرآن، وهو طبيعة الظروف السياسية التي استجدت في عصره... جعل الإمام يكثر من تمثله بالآيات القرآنية لان المسلمين قد بايعوه في أول خلافته وأجمع المهاجرون والانصار على ذلك، فكل من يخرج على البيعة فانما هو خارج على الجماعة، وقتاله جهاد، والموت في حربه شهادة، ومن هنا كثرت هذه المعاني الاسلامية في خطبه، وتمثل بالآيات والعبارات القرآنية مستمداً من ثقافته الأصلية وسليقته البليغة التي اعتمدت على منهل القرآن وأدبه))^(٣٠).

لاشك أن النص القرآني اذا ذكر ضمن الكلام بان فضله على عبارات الخطبة، ومن ثم تصبح ابلغ في الوصول إلى المراد وأوقع في النفوس، فقد عُدَّ القرآن من الآت علم البيان:

((لان في حفظ القرآن فوائد كثيرة، منها أنه يضمن كلامه بالآيات في امكانها اللانقة بها، ومواضعها المناسبة لها، ولاشبهة فيما يصير الكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق. — فالقرآن — بحر يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي الكلام))^(٣١).

ويمكن دراسة أثر القرآن الكريم في الأداء البياني في خطب الحرب للإمام □ من خلال:

- ١- الاستشهاد بالآيات القرآنية.
- ٢- انتقاء المفردة القرآنية.
- ٣- الالفاظ المتقابلة في الايات القرآنية.
- ٤- الافادة من التركيب الجملي في الآيات القرآنية.

١- الاستشهاد بالآيات القرآنية :

^(٢٧) الموجز في الأدب العربي وتاريخه: ٣٣٦/١.

^(٢٨) الخطابة العربية في عصرها الذهبي: ٤١.

^(٢٩) الإمام علي ومدرسة القرآن: ٥٧.

^(٣٠) أثر القرآن الكريم في الأدب العربي في القرن الأول الهجري: ٧٥.

^(٣١) المثل السائر: ٦١ / ١.

أن امتزاج الثقافة القرآنية في ذاتية الإمام □ إنما تظهر من حنايا خطبه المتأثرة بأساليب القرآن، وهي تحكي بالوقت نفسه إندماج فكر الإمام في الفكر القرآني اندماجاً كلياً، فهو يتحدث عن عجائب الكون، وظواهر المناخ، وحياة الكائنات الحية، في أكثر من خطبة، ليضيف الطابع الشمولي العام لمفاهيم القرآن، كبيرها وصغيرها، حتى إذا لاحظنا خطبه الحربية الرصينة، وجدناه □ يضيف إليها جودة البيان، وحسن الانتقاء، فيما يناسبها من الآيات التي تحت على الجهاد، وتؤكد التصاق تلك الخطب بآيات القرآن العظيم فكراً ومضموناً، فالقرآن كما قال باحث معاصر ((يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية ليصل إلى هدفه من تهذيب النفس، وحب العمل الصالح، والايمان بالله واليوم الآخر))^(٣٢).

وقد تم اختيار نماذج خمسة من خطبه، مشتملة على هذا الملحق.
الاقتباس الأول كان في ذم المتقاعسين عن القتال، القى خطبته هذه عند علمه بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر^(٣٣)، اذ ورد قوله تعالى:

[يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُوْنَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُوْنَ] (الانفال-٦)

نزلت سورة الانفال بأسرها في غزوة بدر، وقد جاء الإمام □ بقوله تعالى [كَأَنَّمَا يُسَاقُوْنَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُوْنَ]، أي انهم كانوا يجادلون النبي □ في لقاء عدوهم لشدة القتال، وكانوا يطلبون الرخصة في التخلف عنه أو في تأخير خروجهم إلى وقت آخر في يوم بدر، اذ لم يكونوا مستعدين، ولكرهتهم له، كانوا بمنزلة من يساق إلى الموت وهم يرونه عياناً^(٣٤). وهذا ما حدث مع الإمام □ وأصحابه فهو يريد أن يؤكد لهم، انهم على حق، فلا وجه للسؤال عن طبيعة الحرب مع خصومه، ولو كانوا كذلك لما خشوا الموت، لأن الجهاد يقودهم إلى الجنة.
كما جاء □ بأقتباس آخر ضمن كلام له، للخوارج حين اعتزلوا الحكومة^(٣٥)، اذ تلى قوله تعالى:

[قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ] (الانعام/٥٦).

قد ورد قوله تعالى ((قد ضللت اذا وما انا من المهتدين)) وكأنه □ يمثل حاله بحال الرسول □ اذ نزلت عليه هذه الآية عندما امر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يظهر البراءة مما يعبدون من الاصنام فعبادتهم لها كانت على طريق الهوى لا على طريق البينة والبرهان، ومن ثم لا يتبع أهواءهم النبي في طرد المؤمنين وقوله تعالى ((فقد ضللت اذا)) أي ان فعل النبي ذلك ما هو من المهتدين، أي النبيين الذين سلكوا طريق الهدى^(٣٦).
وهذا أشبه ما حدث بين الإمام □ وبين الخوارج الذين اتبعوا أهواءهم واتخذوها آلهة لهم، فلا يمكن ان يوافقهم الإمام □ على ذلك.

لقد كان □ شديد الدقة فيما يختار من آيات الذكر الحكيم تتناسب والحدث الذي نزلت فيه، فكل ما جاء من آيات هو ((ثروة بيانية لا تنفذ، ومعيناً بلاغياً لا ينضب، ورسالة سماوية لا يقربها الباطل، وكلمهم بلغتهم فنفاذ إلى قلوبهم محتقلاً بالبيان، فهو بيان للناس يهديهم ويرشدهم ويوجههم نحو الله))^(٣٧).
كما وردت آية من آيات الذكر الحكيم في كلام الإمام □ كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين، وهو يحثهم على القتال^(٣٨)، فقد جاء بقوله تعالى :

[فَلَا تَهْوَواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَلُكُمْ] (محمد -٣٥).

أورد الإمام □ هذه الآية، وهي من سورة محمد وتسمى ايضاً سورة القتال^(٣٩)، وهي تبين فلسفة القتال حسب تعاليم الله سبحانه وتعالى؛ فهو يوصي اصحاب النبي □ بعدم الضعف في القتال وتجنب المسالمة والمصالحة، فبالإضافة إلى نصاعة الاختيار، ودقة التأكيد، نلاحظ قوله تعالى ((وانتم الاعلون)) التي توحى بالغلبة والانتصار، ومعنى هذا انها تشير إلى النتائج التي يود المقاتل معرفتها في ربح الحرب أو خسرانها، حتى اذا عرف المصير بالظفر والنصر، تبين مدى الروح الألهي في رفع معنويات الجيش.

^(٣٢) بلاغة القرآن الكريم: ٣٧.

^(٣٣) ظ: نهج البلاغة: ٩٠/١.

^(٣٤) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥١٦/٤.

^(٣٥) ظ: نهج البلاغة: ١٠٦/١.

^(٣٦) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٠٩/٤.

^(٣٧) أصول البيان العربي: ١٣.

^(٣٨) ظ: نهج البلاغة: ١١٥/١.

^(٣٩) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠٧/٩.

وحديث الآية عن حال المؤمنين بأنهم الأعلون وعد شريف من الله تعالى لهم بالنصرة والاستعلاء على الأعداء، ولن ينقصهم شيئاً بل يثيبهم الله سبحانه وتعالى ويزيدهم من فضله، فقد جاء الإمام □ بهذه الآية لينبه أصحابه حول هذه التعليمات، والاستشهاد بها جاء بعد دعوة معسكر الشام إلى التحكيم، لأن النصر أصبح قريباً من أصحابه، فحاول □ الاستعانة بالقرآن الكريم لأثارة همم أصحابه وهكذا كانت آياته ((قوة للخطيب وحلية المنشيء، يرصع بها كلامه فتتميز - الخطبة- بطلاوتها ونفاستها))^(٤٠).

وردت آية أخرى في خطبة للإمام □ في ذم بعض أصحابه^(٤١). عند تركهم القتال والنصر يكاد يتم، وهي حاملة لمعنى العتاب والتقريع، فقد جاء بقوله تعالى:

[وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ] (ص-٨٨)

قوله تعالى كان معنياً به الكفار أي ما أنبئ عنه وأخبر به من الدعاء إلى الله وتوحيده والترغيب في الجنة والتحذير من النار بعد حين أي بعد زمان^(٤٢)، فقد جاء الإمام □ بهذا النص القرآني دلالة على ما يشعر به أراء أصحابه وكل ما ورد من كلام له □ سيعلمون صدقه بعد زمان ومن مات منهم سيعلمه بعد موته.

وكما وردت الآية الأخيرة في خطبة أخرى في النقد والتعريض بالخوارج، عندما أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة هموا باللاحق بالخوارج وكانوا على خوف منه □ فلما عاد إليه الرجل قال له: ((أمنوا فظنوا ام جبنوا فظعنوا؟)) فقال له الرجل: بل ضعنا يا أمير المؤمنين^(٤٣)، فقال □ عن قول الله سبحانه وتعالى:

[كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدَيْنَ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ] (هود-٩٥)

فقد جاء □ بالخوارج بدلاً من قوم مدين فقال ((بعداً لهم كما بعدت ثمود)) وقد أراد بالبعد، اللعنة وتكون اللعنة ببعدهم عن رحمة الله، كما بعدت ثمود، وهلكوا كما هلكت ثمود^(٤٤).

٢- انتقاء المفردة القرآنية :

تمكن الإمام □ بذائقته البلاغية وحسه من ان يختار من الالفاظ ما هو قوي في تصويره، واضح في دلالاته على مراده، وقد تمكنت هذه الالفاظ ان توحى بما كان يريد الإمام □ من أصحابه، وهذه الالفاظ كانت تحرك نفوس أصحابه وتثير الوجدان فيهم، فكل لفظة، في القرآن ((وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى اقوى أداء، ولذلك لاتجد في القرآن تردافاً، بل فيه كل كلمة تحمل اليك معنى جديداً))^(٤٥).

الإمام □ لايجيد باللفظة عن دقيق معناها على الرغم من اشتراكها مع نظيراتها من المفردات في الدلالة، وقد راعى الإمام □ دقة التعبير القرآني في بعض المفردات التي وردت في خطب الحرب خاصة، منها:

الحرب، المطر، الريح، أعين، صَبَّ

لفظة ((الحرب)) وردت في القرآن الكريم، اربع مرات فقط، منها قوله تعالى :

أ- [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ] (البقرة-٢٧٩)

ب- [وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاءً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] (المائدة-٦٤)

ولو تأملنا هذه الايات الكريمة لرأينا ان لفظة ((الحرب)) ترد في موضع الذم أو العداء والخصومة بعيداً عن

^(٤٠) تاريخ الأدب العربي: احمد حسن الزيات : ٨٧.

^(٤١) ظ: نهج البلاغة: ١١٨/١.

^(٤٢) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٨/ ٤٨٧.

^(٤٣) ظ: نهج البلاغة: ١٠٢/٢.

^(٤٤) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٨٦/٥.

^(٤٥) بلاغة القرآن: ٥٧.

^(٤٦) ظ: سورة محمد/٤، الانفال/ ٥٧.

حدث الاقتتال او المواجهة العسكرية^(٤٧)، وقد كان □ مدرکاً تماماً دقة التعبير في هذه اللفظة، لأن مفهوم الحرب، ليست المواجهة في الميدان فقط، وانما الحرب بكل وجوهاها، ولذا جاء استعمال الإمام لها بهذا المعنى، فالامتناع عن دفع الزكاة والخراج... هو ضرب من الحرب، فوردت في خطبه □ في المعنى نفسه الذي جاءت عليه في القرآن، فقال من خطبة له، في استغفار الناس إلى أهل الشام، اذ قال:

"لَيْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ سَعَرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ، تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ"^(٤٨).

وخطبة أخرى وردت فيها أيضاً، لفظة الحرب، اذ قال □:

"وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ"^(٤٩)

ومرة ثالثة تأتي في إحدى الخطب المشتملة على الملاحم اذ قال:

"مَاجَتِ الْحَرْبُ بِأُمُوجِهَا"^(٥٠)

ونعود مرة أخرى إلى خطبة له □ يومئى بها إلى الملاحم اذ قال:

"حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِيَةٍ تَوَاجِدُهَا مَمْلُوءَةٌ اخِلَافِهَا حُلُومًا رِضَاعِهَا عِلْقَمًا عَاقِبَتُهَا"^(٥١)

لقد وردت لفظة «الحرب» في النصوص أعلاه بمعنى الذم ففي النص الأول جاء بالحرب بقصد عتاب وتقريع أصحابه لتخلفهم عن القتال، اذ شبه أصحابه بوقود النار، للحرب.

وفي النص الثاني جاء بالتشبيه البليغ، لانه شبه الحرب بالباب، وقد ترد على قصد الاستعارة المكنية اذ شبهت الحرب بالشيء الذي يكون له باب، وحذف المشبه به وأشار إلى شيء من لوازمه وهو الباب، اما النص الثالث، فقد وردت الحرب مضافة إلى الالفاظ التي معها، مشكلة استعارة مكنية ايضاً، اذ شبه الحرب بالبحر المائج، الغاضب، فحذف المشبه به وذكر احد لوازمه وهو الموج.

أما النص الرابع، والأخير، فقد صور □ الحرب بحيوان وقد بدت نواجذه وقد أمتلأت اخلافه بالشر والموت، وفي الوقت ذاته فهي حلوة الارضاع لأهل الحق، وهكذا فقد كان الإمام □ يقصد في ذكر الحرب إلى الذم والخصومة والعداء.

كلمة «المطر» وردت في القرآن الكريم في موضع الانتقام فقط^(٥٢). وقد جاءت في خمسة عشر موضعاً من أي الذكر الحكيم، منها قوله تعالى:

[وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ] (الاعراف-٨٤)

وقوله تعالى :

[فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ] (هود-٨٢، الحجر/ ٧٤)

وقوله تعالى :

[وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ] (الشعراء-١٧٣، النحل - ٥٨)

فقد كانت في جميع المواضع ((تدل على نعمة الله على الكافرين والمعرضين، يرسله الله عز وجل عقاباً للأمم الكافرة، والاقوام السادرة في غيها الذين لايتيحون الفرصة لرسول الله، ودعاة الحق ان يقوموا بمهمتهم))^(٥٣). وهكذا جاءت في إحدى خطب الحرب للإمام □ في موضع الانتقام، فقد وعد عدوه بالعقاب فنزل عليه، فجاء بالمطر للدلالة على هذا المعنى، اذ قال:

"لَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ، وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمِطَرَ"^(٥٤)

لم يخرج الإمام □ عن دقة الاستعمال القرآني لهذه المفردة، فجاء بها كما ورد معناها في أي الذكر الحكيم، اما اذا اراد □ ان يعبر عن الماء المنسكب من السماء رحمة للعباد، ولري الزرع والناس والانعام عبر عنها بلفظة

^(٤٧) ظ: في دائرة النقد اللغوي: ٢٨.

^(٤٨) نهج البلاغة: ٨٣/١.

^(٤٩) م: ٨٦/٢، ٨٧.

^(٥٠) م: ١٩٥/١.

^(٥١) م: ٢١/٢.

^(٥٢) ظ: البيان والتبيين: ٣٤/١.

^(٥٣) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٥٠٨.

^(٥٤) نهج البلاغة: ٤٢/١، ٤٣.

((الغيث)) كما ورد ذكرها في القرآن الكريم^(٥٥)، معبرة عن هذا المعنى.

اما لفظة ((الريح)) فكان لها معنى ودلالة خاصة تختلف عن معنى ودلالة ((الرياح))، فالريح ترد في القرآن بمعنى الشدة المقترنة بالعذاب اما الرياح، فتد دلالة على الخير، فقد وردت ((الريح)) في ثلاثة صور^(٥٦)، وقد جاء الإمام □ بأحداها في خطبه وهي التي تعني الريح الضارة الشديدة القاسية العاصفة، منها قوله تعالى: [أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيًّا] (الاسراء-٦٩) وقوله تعالى:

[وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطِّفُهُ الْطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ] (الحج-٣١)
وما جاء في المعنى نفسه من خطبته □ في ذكر اصحاب رسول الله □ اذ قال:
"لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشَبِّهُهُمْ.. إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبْلُ جُيُوبُهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءِ النَّوَابِ"^(٥٧)

في قول الإمام □ تشبيه تمثيلي- وتصوير لحال اصحاب الرسول □ فهم يتحركون اضطراباً لذكر الله كما يضطرب الشجر بفعل الريح العاصف، وهكذا فالإمام □ لا يجيد بالمفردة عن معناها الذي وردت عليه في القرآن، حاملة لمعنى واحد فقط وهي نسائم خيرة طيبة، ((فالرياح)) و ((الريح)) من الدلالات الجديدة التي وضعها القرآن الكريم^(٥٨).

ان أسلوب القرآن ((يتأنق في اختيار الفاظه، ولما بين الالفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وان كل كلمة أخرى، لاتستطيع توفية المعنى الذي وفته به اختها))^(٥٩).

كما ندرك دقة الاستعمال القرآني للفظه ((العيون، والأعين)) ((فلم يستعمل العيون الا لعيون الماء ... في حين جمع العين الباصرة على أعين))^(٦٠). والاخيرة هي ما جاء بها الإمام □ كما ورد معناها في أي الذكر الحكيم كما في قوله تعالى:

[الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا] (الكهف-١٠١)
وقوله تعالى:

[قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ] (الاعراف-١١٦)
وقوله تعالى :

[لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَى ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ قَسِيصٌ وَرُهْبَانٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ] (المائدة-٨٣)
لقد كانت الدقة في استعمال ألفاظ القرآن، قمة الأدب والفن، وعلى هديها سار الإمام □ في تعبيره بين طيات خطبه الحربية، حتى عدَّ إمام البلغاء، لأن من تأثر بالقرآن فأنما يتأثر بأعلى درجات فن القول في اللغة العربية، واذ إستقام له ذلك، تفجرت البلاغة بين يديه، وهكذا كان الإمام. فمن خطبته في استنفار الناس وهي في عتاب اصحابه وتقريعهم، اذ قال:

^(٥٥) ظ: سورة الشورى/ ٢٨، لقمان/ ٣٤، الحديد/ ٢٠.
^(٥٦) الأولى: تعني الريح الضارة، والثانية: تعني الرائحة الطيبة، الثالثة: تعني القوة والبأس. ظ: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٥١١.
^(٥٧) نهج البلاغة: ١/ ١٨٩، ١٩٠.
^(٥٨) ظ: التعبير القرآني: ١٧.
^(٥٩) بلاغة القرآن الكريم: ٥٧.
^(٦٠) التعبير القرآني: ١٨.

"إِذَا دَعَوْكُمُ إِلَى جِهَادٍ عَدُوَّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ" (٦١)

ومن خطبة أخرى في صفة اصحاب الرسول □ اذ قال:

"لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْتًا غُبْرًا، وَقَدْ بَاثُوا سُجْدًا وَقِيَامًا يُرَاحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقْفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكْبَ الْمَعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ" (٦٢)

جاء □ في النص الأول ((بدوران الأعين)) كناية عن اضطرابها من الجزع، وفي الثاني، كناية عن صفة اصحاب الرسول □ والمعنى أنهم يطلبون السجود، فلا يشغلهم شيء عن التعبد لله فهم لا ينامون الليل فلا تغمض عيونهم لأجل ذلك.

وقد استعمل القرآن الكريم الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الدقة، فالكلمات السابقة الذكر كانت أسماء وهي تدل على الثبوت والاستقرار، أما الأفعال فتدل على الحدث والتجدد وهذا ما وردت عليه جميع أفعال القرآن الكريم فمن الدقة القرآنية في استخدام الالفاظ المستعارة، أنه استخدم الفعل ((صب)) وهي ((مؤذنة بالشدة والقوة معاً)) (٦٣) ففي قوله تعالى:

[وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَكَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ] (الفجر ١٠-١٣)

ووردت عند الإمام علي □، ((صب)) في المعنى نفسه -القوة والشدة- من كلام له في الخوارج، قال:

"أَمَّا لَوْ أَشْرَعْتَ الْأَسِنَّةَ إِلَيْهِمْ، وَصَبَّ السَّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ" (٦٤)

فلم يخرج الإمام □ عن المعنى الذي وضعه التعبير القرآني بينما نجد القرآن يستخدم ((افرع)) وهي ((توحي باللين والرفق عند حديثه عن الصبر)) (٦٥)، فالقرآن يمنح الصورة حساً بما يزيد قوة، ومن ثم تمكن لها في النفس، والامام □ اخذ بروعة القرآن فأمن به وأحب بيانه وسحره الخارق، فضلاً عن تعاليمه وروحه الجديد، فقد عمد إلى تلك الالفاظ الحكيمة.

٣- الالفاظ المتقابلة في الايات القرآنية:

توجد في القرآن ((معان لاتكاد تفترق، مثل الصلاة، والزكاة، الجوع والخوف، الجنة والنار، الرغبة والرهبة...)) (٦٦)، ففي القرآن كثير من الالفاظ، تشع منها معاني توحي إلى النفس بالفكرة احياءاً قوياً، فضلاً عن استعمال الإمام □ لهذه المعاني بنفس طريقة استعمال القرآن لها، وكانت على التوالي:

الرعد والبرق، القبض والبسط، القائم والحصيد، الحق والباطل.

ففي ((الرعد والبرق)) قوله تعالى:

[أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ] (البقرة- ١٩)

وقد عُذ ذكر الرعد والبرق في أي الذكر الحكيم من زواجر القرآن (٦٧)، وهو ((مشهد غني بضخامة التمثيل

(٦١) نهج البلاغة: ٨٢/١.

(٦٢) م.ن: ١٨٩/١، ١٩٠.

(٦٣) بلاغة القرآن: ٢٢٠.

(٦٤) نهج البلاغة: ١٠٢/٢.

(٦٥) بلاغة القرآن: ٢٢٠، ظ: سورة البقرة: ٢٥٠، الأعراف: ١٢٦.

(٦٦) البيان والتبيين: ٢٠/١.

(٦٧) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٥٧/١.

والتصوير، ورعب الأضواء الكاشفة، انصب في مناخ يسرد البعد النفسي لفرغ المناققين وحيرتهم، فهم في كزة من الأضطراب كمن قذفته السماء بمطر متقاطر تدفعه ظلمات عاصفة، باصوات الرعد، ولمعان البرق^(٦٨). وفي هذا المعنى جاء بها الإمام □ في خطب الحرب، ففي خطبته التي بها يصف خصومه من اصحاب الجمل، اذ قال:

"وَقَدْ أَرَعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْقَتْلُ"^(٦٩)

على الرغم من أن الرعد والبرق يحدث في وقت واحد فإن التركيز على الرعد آتٍ من أن الانسان قد يربعه صوت الرعد حتى ولو كان نائماً فيستيقظ، أما البرق فهو بحاجة إلى النظر، وقد لا ينظر الانسان إلى السماء في أي وقت، اما الرعد فيسمعه أراد أم لم يرد ذلك، ولذا جاء هذا التقديم في القرآن وكلام الإمام □ الرعد والبرق اللذين ذكرهما □ دلالة على الوعيد والتهديد وفي هذا المعنى وصف لحالهم في أنهم لا يقدرّون على فعل شيء، وأن فعلوا فلا شيء وراءه، فقد وردت على سبيل الاستعارة التصريحية.

أما في معنى ((القبض والبسط)) على التوالي كقوله تعالى :

[مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا فَيُضَعِّفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] (البقرة-

٢٤٥)

أي أن الله سبحانه وتعالى ((يقبض الرزق عن أقوام بأن يقتره عليهم ويبسط الرزق على أقوام بأن يوسعهم عليهم))^(٧٠)، أي ان الله سبحانه وتعالى يتصرف بالارزاق كما يشاء ويقدر، وفي معنى التصرف جاءت في خطب الحرب للإمام □ من خطبة له عندما تواترت الأخبار باستيلاء اصحاب معاوية على اليمن، اذ قال:

"مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبَضُهَا وَأَبْسَطُهَا"^(٧١)

فقد استعار □ القبض والبسط للدلالة على تمكنه من التصرف بها من جهة الادارة والاستيلاء وحسن التصرف على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومن المعاني التي تكاد لا تفترق في أي الذكر الحكيم كلمتا ((قائم وحصيد))، كما ورد في قوله تعالى :

[ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ] (هود-١٠٠)

قصد سبحانه وتعالى ان هذه القرى منها ما هو ((قائم)) بالعروش والمباني ومنها ما هو ((حصيد)) تعبيراً بالكناية عن الخراب، أي ما سقطت مبانيه فلم يعد له أثر، وعلى هذا المعنى وردت كل من قائم وحصيد في احدى خطب الملاحم للإمام □ اذ قال:

"هَذَا وَكَمْ يَخْرُقُ الْكُوفَةُ مِنْ قَاصِفٍ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ، وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيَحْصِدُ الْقَائِمُ وَيَحْطُمُ الْمَحْصُودُ"^(٧٢)

قصد الإمام □ المعنى نفسه في الآية الانفة الذكر، وقد جاء بها ليرسم صورة الفتنة فهي ((تدمر البناء القائم، وتجعله أثراً بعد عين، وتمحو أثار الأولين من الوجود))^(٧٣)، وفي كلام الإمام □ كناية عما بقي من الصلاح قائماً وحصيداً، وحتى ما حصد منه يحطم.

ومما أنتقاه الإمام □ من الالفاظ الثنائية، كلمتا ((الحق والباطل)) وقد وردت كلمة الباطل تقابلها كلمة الحق في اثنتي عشرة آية، وفي جميع هذه الآيات كان يعني ((الباطل في الاسلام هو الجهد الضائع والعمل الخاسر والاعتقاد الزائف لانه نقيض الحق، والحق هو الدين الباقي والشرع الخالد))^(٧٤)، منها قوله تعالى :

[وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ] (البقرة-٤٢)

وقوله تعالى :

[لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ] (الانفال-٨)

^(٦٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٩٢، ٢٩٣.

^(٦٩) نهج البلاغة: ٤٢/١.

^(٧٠) مجمع البيان: ٣٤٩/٢.

^(٧١) نهج البلاغة: ٦٤/١.

^(٧٢) نهج البلاغة: ١٩٥/١.

^(٧٣) في ظلال نهج البلاغة: ٩٥/٢.

^(٧٤) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: ٣٣١.

وقوله تعالى :

[وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا] (الاسراء-٨١)

وقوله تعالى :

[بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ] (الانبيا-١٨)

وعلى هذا الأساس جاء بها الإمام □ ليؤكد للخارجين عليه، اعتقادهم الزائف، وانهم على نقيض من الحق بقوله من خطبة له في نقد وتعريض لهم، اذ قال:

"فَلَا تُقْبِنَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنَبِهِ"^(٧٥)

ومرة أخرى يقول □ :

"وَأَيُّمُ اللَّهِ لَا يُقَرَّنُ الْبَاطِلُ حَتَّى أُخْرَجَ الْحَقُّ مِنْ خَاصِرَتِهِ"^(٧٦)

لقد جاء الحق والباطل في كلا النصين على سبيل الاستعارة التمثيلية، وكأن الحق لا يعرف الا اذا كان هناك باطل، والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي ((فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه، والا اختل وانهار))^(٧٧).

٤ - الافادة من التركيب الجملي في القرآن:

لقد وقع الإمام تحت تأثير القرآن حتى تسرب إلى نفسه متوغلاً في وجدانه، مؤثراً فيه، وكان من جراء ذلك أن تأثرت خطبه بصورة عامة، وخطب الحرب، خاصة، بالاسلوب القرآني، حتى أصبحت تلك الخطب أثراً من الآثار الفنية فضلاً عن كونها وسيلة للأقناع والتأثير.

ولقد مال القرآن إلى ناحية التصوير، فنراه يعبر عن المعنى المعقول بالفاظ تدل على محسوسات، فضلاً عن أن تصوير الامر المعنوي، في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس وتأثيراً فيها، فـ ((التصوير هو الاداة المفضلة في اسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، او الحركة المتجددة))^(٧٨)، وهذا ما انتهجه الإمام □ في خطب الحرب اذ استمد معانيه وافكاره من معين القرآن، في اسلوبه الرائع من تشبيه وتمثيل ومجاز واستعارة وكناية، فقد وردت عناصر الأداء البياني في التعبير القرآني على نهج طبيعي.

فالتصوير الخاص بالتركيب جاء في دقة التشبيه وروعة في المجاز، وبلاغة في الكناية، فما جاء في تشبيهاته □ مأخوذ من منهل القرآن، وكما نعلم بأن التشبيه هو وجود صلة بين أمرين، والغرض منها هو الوضوح والتأثير، لأن الإمام يدرك ما بين الاشياء من صلات يمكن أن يستعين بها في توضيح شعوره فـ ((ليس الحس وحده هو الذي يجمع بين المشبه والمشبه به في القرآن، ولكنه الحس والنفس معاً، بل أن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى))^(٧٩).

وهناك خصائص للتشبيه في القرآن، استمد الإمام □ منها اسلوبه في خطبه الحربية وهي^(٨٠):

١ - أن القرآن كان يستمد عناصر التشبيه من الطبيعة، فمن نباتها وجمادها وحيوانها، فضل ومنزلة في نقل الفكرة وتصويرها وهو سر خلود القرآن منها قوله تعالى :

[وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِذَّةً فَوْقَهُ حَسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] (النور-٣٩)

ابلق تصوير ورد في القرآن فهو ((ابراز لأعمال الكافرين، وكشف لدخائلهم وانقطاع لآمالهم، فها هي قرباتهم كالشعاع المنتشر في الصحراء يتخيله الظامئ - وهو بأمس الحاجة إلى الماء- ماء، ولكنه استماع كاذب، لاح على

^(٧٥) نهج البلاغة: ٨١/١.

^(٧٦) نهج البلاغة: ٢٠٠/١.

^(٧٧) بلاغة القرآن: ١٠٥.

^(٧٨) التصوير الفني في القرآن: ٢٩.

^(٧٩) بلاغة القرآن: ١٩٢.

^(٨٠) ظ: م: ١٩٦.

بسيط من الأرض في صحوة من نهار، ووهج من قيض، وإذا به خلب كالضباب لم يجد عنده شيئاً يروي غلته، وإذا به يصطدم بالمفاجأة الكبرى، والحقيقة التي لم يحسب لها حساباً، ولم يشغل بها بالاً، فهو قد وجد الله بانتظار جزائه، وكشف حسابه، وبسرعة مذهلة وحركة خاطفة، يوضع الميزان، وترفع الأعمال، وتتميز الصحائف، وإذا بالزبانية تقوده إلى النار^(٨١).

مما جاء به الإمام متمثلاً بقوله تعالى السابق من كلام له □ لاصحابه في ساحة الحرب يحثهم على القتال، اذ قال:

"الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرُدُّ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي"^(٨٢)

وهكذا نرى أن التشبيه في القرآن يكون بتشبيه الشيء بالشيء في صورته وفي حركته وفي لونه وطبعه، وكل منها متحد بذاته، واقع من بعض جهاته^(٨٣).

ومن عناصر التشبيه في الطبيعة هو الحيوان فقد ورد ذكره في القرآن الكريم، منه قوله تعالى:

[أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا] (الفرقان- ٤٤)

وقوله تعالى:

[ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ (٥١) لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ] (الواقعة/ ٥١-٥٥)

كما ورد هذا التشبيه في خطب الحرب للإمام □ فقد أشار إلى أحوال الانعام، فهي قوية، وهزيلة، عطشى ومرتوية، حنونة وعطوفة... بكل أحوالها، وجعل هناك صلة بين صفاتها وصفات الانسان سواء كانوا من اصحابه أو اعدائه.

فقد شبه الإمام تزامح الناس على بيعته بتزامح الابل العطاش التي تقصد الورد، اذ قال:

"فَتَذْكُوكُوا عَلَيَّ تَذَاكَ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وَرْدِهَا"^(٨٤)

وتارة يشبه حال بعض أهل الكوفة، بالابل الضالة، اذ قال:

"مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَابِلِ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرٍ"^(٨٥)

٢- المقدرة الفائقة في اختيار الالفاظ الدقيقة الموحية، منه قوله تعالى:

[يَبْنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْمٍ وَرِيثًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ] (الأعراف- ٢٦)

لباس التقوى هو لباس الايمان والعمل الصالح، والورع، وأتقاء معاصي الله سبحانه وتعالى، وهو الدرع الذي يلبسه من يجاهد في سبيل الله، على حد قوله تعالى ((ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)).

وقد جاء الإمام □ بهذا التركيب من قوله في خطبة له يحث فيها اصحابه على القتال، اذ قال:

"أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةٍ أَوْ لِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ، وَجَنَّةُ الْوَيْثِقَةِ"^(٨٦)

قد جاء □ بهذا التشبيه البليغ ليؤكد بأن الجهاد هو التقوى نفسها، وعلى هذا فقد كان التشبيه في القرآن ((فيه من التأثير في العاطفة، فترغب أو ترهب، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه، الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ويصور وقع الدعوة على قلوبهم، وماكانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والأعراض^(٨٧)).

وقد ورد التشبيه في خطب الحرب للإمام □ حاملاً لكل هذه المعاني فقد كان □ يريد التأثير في نفوس أصحابه، فيأتي به - التشبيه - كي يثبت الفكرة في النفس، ويبقى يلح لها من عدة زوايا في اهداف خطبه سواء كان حثاً على القتال أو نقداً و تعريضاً أو تهديداً وإذاراً..

^(٨١) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٨١.

^(٨٢) نهج البلاغة: ٤/٢.

^(٨٣) ظ: الجمان في تشبيهات القرآن: ٤٣.

^(٨٤) نهج البلاغة: ١٠٣/١.

^(٨٥) م.ن: ٨٣/١.

^(٨٦) نهج البلاغة: ٦٧/١.

^(٨٧) بلاغة القرآن: ٢٠٤.

كثير ما يجتمع التخيل والتجسيم والتشخيص^(٨٨)، في القرآن الكريم فيبدو الأمر المعنوي محسوساً ملموساً، ففي قوله تعالى :

[بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ] (الانبياء-١٨)

هنا يقذف الله بالحق على الباطل فيذهبه ويبقى الحق شامخاً، فـ «(القذف والدمغ)» الواردتان في الآية مستعارين وهما محسوسان والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان، وقد وردت عند الإمام □ بالمعنى نفسه، ففي خطبته عند خروجه لقتال أهل البصرة في وقعة الجمل، قال:

"أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّيْتُ بِحَدَافِيرِهَا، مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا، فَلَا تُفَنِّئَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ"^(٨٩)

ومرة ثانية يقولها □ موبخاً الخارجين عليه، فيقول:

"وَأَيْمُ اللَّهِ لَا يُقَرَّنُ الْبَاطِلُ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ"^(٩٠)

قول الإمام هذا متمثل بما ورد في أي الذكر الحكيم فقد جاء □ بالمعنى - التركيب - ولكن بصياغة جديدة، إذ مثل الباطل، بكائن أو بهيكل، متضمن «(الحق)» أو حاوياً عليه وفي كلا النصين جاء بالفعلين «(انقبن، وابقرن)» وكلاهما يوحى بالقوة التي يستعملها الإمام □ بالصيغة الفعلية- يخرج و اخرج- الدالة على الحركة والتجدد.

وهنا الإمام يضرب الباطل ليخرج الحق الا اذا قلنا أنه □ يضرب الباطل بالحق- أي حقه هو- فيخرج الحق الواضح الذي التبس على بعض اصحابه.

ومرة أخرى يأتي □ بصورة مرادفة من القرآن الكريم ليوضح فكرته لأصحابه من آيات الذكر البينات فمن قوله سبحانه وتعالى:

[وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا] (الاسراء-٦٤)

وكان الباري عز وجل يخاطب أبلis بأن يعدّ لبني آدم ما يستطيع ويجلب^(٩١) عليهم من خيله ورجله كي يغرر بهم، وما يعدهم الشيطان الا غروراً، وقد وردت هذه الجملة القرآنية في إحدى خطب الحرب للإمام □ لترسم لنا الصورة نفسها، اذ قال:

"أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ، قَدْ جَمَعَ حَزْبَهُ، وَاسْتَجَلَبَ خَيْلَهُ وَرَجَلَهُ"^(٩٢)

فقد جاءت الاستعارة هنا مرادفة لما جاءت عليه في الآية السابقة، وقد عنى بالشيطان هنا أهل صفين، واصحاب الجمل، لأن كلا منهما، جمع حزبه واستجلب خيله ورجله لحرب الإمام □.

ان الأدب في أنبل نماذجه، يجمع بين المشاعر والألفاظ وتأتي النفس لتعبر عن تلك المشاعر بما يجانسها من الألفاظ فـ «(القرآن يرسم في الخيال صورة ناطقة لاتقف عند الرمز الكنائي بل تجاوزه إلى التعريض، واذا كانت في الكناية تذكر اللفظ وتريد لازم معناه، فأنت في التعريض تذكر اللفظ وتلوح به إلى ما ليس من معناه لا حقيقة ولا مجازاً)»^(٩٣)، فالتعريض هو أن يذكر شيء يدل به على شيء لم يذكر وأهم أغراضه، الذم، منه قوله تعالى:

[أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَتُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا] (الاحزاب-١٩)

هو وضع الجبان، التلفت يميناً وشمالاً، فتبدو عينه، كعين الذي نزل به الموت، يبقى بصره فلا يغمض، والله سبحانه وتعالى يصف الكافرين عند الحرب، أشح قوم وابسطهم لساناً وفي وقت اليأس اجبن قوم واخوفهم، وهذا ما جاء به الإمام □ في خطبته لأستنفار الناس إلى أهل الشام، اذ قال:

"أَفْ لَكُمْ لَقَدْ سَيِّمْتُ عَنَابَكُمْ.. إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوَّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ

^(٨٨) ظ: مباحث في علوم القرآن: ٣٢٥.

^(٨٩) نهج البلاغة: ٨١/١.

^(٩٠) م.ن: ٢٠٠/١.

^(٩١) الجلب: هو ماسبق من الحيوان، ظ: مع نهج البلاغة: دراسة ومعجم: ١١٣.

^(٩٢) نهج البلاغة: ٤٣/١.

^(٩٣) مباحث في علوم القرآن: ٣٣٢.

في غَمْرَةٍ^(٩٤)

كان □ يخاطب اصحابه بصيغة العتاب والتقريع فقد كنى عن صفة جزعهم واضطرابهم، وفيه تصوير دقيق لما في نفوس بعض أهل الكوفة من الخوف والجبن لملاقاة جيش معاوية، فقد رسم صورة موحية وموجزة فقد وفى المعنى بالفاظ قليلة.

ومن الخطبة نفسها جاء □ بكلام آخر اقتبس صياغته من القرآن الكريم ومن المعنى ذاته ايضاً، اذ قال سبحانه وتعالى :

[أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ] (الرعد- ٤١)

وجاءت مرة ثانية في قوله تعالى :

[بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ] (الانبياء- ٤٤)

وقد قصد سبحانه وتعالى بقوله ((ننقصها من اطرافها)) أي أرض الكفر ينقصها بالظهور عليها من أطرافها، فيفتحها للنبي محمد □ بلداً بعد بلد، وقيل ننقصها بالقتل والسبي^(٩٥)، وقد جاء بها الإمام □ متمثلاً، وقد قصد اصحابه المتقاعسين عن القتال، اذ قال:

"لَبِئْسَ لَعْمَرُ اللَّهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ، تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ، وَتُنْقِصُ أَطْرَافَكُمْ فَلَا تَمْنَعُونَ"^(٩٦)

جاء □ بها كناية عن النيل من اصحابه، فكما امكنت اهل الشام فرصة منهم لا ينامون عن أهل الكوفة المتخاذلين الساهين فيحتلون أرضهم ولا يغضبون.

وهكذا فقد وجد □ من هذا التمثيل طريقة مؤثرة تدفع اصحابه إلى التفكير العميق.

وعلى هذا يمكن أن نجمل القول في فضل القرآن على خطب الإمام علي □ عامة وخطب الحرب خاصة

((فانك تجده مشتقاً من الفاظه، ومقتضباً من معانيه ومذاهبه، ومحدوفاً به حذوه، ومسلوكاً به في منهاجه؛ فهو وان لم يكن نظيراً ولا نداً، يصلح ان يقال أنه ليس بعد كلام افصح منه ولا أجزل، ولا اعلى ولا افخم ولا أنبل، الا ان يكون كلام ابن عمه □ وهذا أمر لا يعلمه الا من ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر بل ولا لانتقاد الذهب، ولكل صناعة أهل ، ولكل عمل رجال))^(٩٧).

^(٩٤) نهج البلاغة: ٨٢/١.

^(٩٥) ظ: مجمع البيان: ٦/٣٠٠، ٤٩/٧.

^(٩٦) نهج البلاغة: ٨٣/١.

^(٩٧) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٨٣/٢.

المبحث الثاني

الحديث النبوي الشريف

١ - الاقتباس باللفظ

٢ - الاقتباس بالمعنى

تأثير الحديث النبوي

الحديث النبوي هو قول الرسول ﷺ، وهو جزء من السنة النبوية الشريفة لأنه مع فعل النبي ﷺ وتقريره يكون السنة التي تعد المصدر الثاني في التشريع بعد القرآن الكريم، فقد كان يفصل مجمل الكتاب، ويوضح مشكله، ويقيد مطلقه، ويخصص عامه، وبهذا ((يتفق القرآن والحديث وحياً، ومعنى، ويفترقان لفظاً ونظماً، وذلك فرق ما بين الكلام المعجز وغير المعجز))^(٩٨).

وقد نشأ الرسول ﷺ نشأة قرشية بدوية خالصة واسترضع في بني سعد بن بكر، وهي أفصح القبائل العربية، فأجتمعت له فصاحة اللسان واللغة^(٩٩)، فقد كان ﷺ أعذبهم أسلوباً وأروهم حكمة، واصدقهم قولاً، وأوضحهم عبارة، كما لديه قدرة فطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الالفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية.

وقد منح الله عز وجل الرسول ﷺ احاطة عظيمة، بلغة العرب، وشوارد الفاظها، وضروب فصاحة خطبائها، وبلاغة وغازها، وآتاه جوامع كلمها، وعرفه ايامها وأمثالها، فضلاً عن حكمها ومعاني اشعارها، فـ ((لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً، ولا اعدل وزناً، ولا اجمل مذهباً، ولا اكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ولا ابين في فحوى، من كلامه ﷺ))^(١٠٠)، ولما كان الرسول يتحدث بتأييد إلهي ((وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى))^(١٠١)، فإنه لا يمكن ان يقع بين احكام القرآن والسنة تخالف أو تعارض، وعلى هذا فقد حازت السنة النبوية الصحيحة من قلوب المسلمين ما للقرآن تقريباً من مكانة عظيمة.

لقد امتازت الاحاديث النبوية باتساق عباراتها، لأداء معنى واضح معين، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، فضلاً عن إغنائه لغتنا العربية بصياغات محكمة من الفاظ وتراكيب. ولـ ((مدرسة النبوة ورعاية الرسول لعلها، كان لها أثرها في بناء هذه الذات، .. وكان لصحبته أثرها النفسي، فاستفاد أكثر من غيره، وأخذ أكثر من غيره، وكان للمحيط اثره في نفس الإمام من حب الثقافة العربية التي ادركها ووعاها، وهو فوق ذلك ذو استعداد ذهني وذكاء رفيع، وقابلية نفسية ورغبة، وكانت النتيجة إن حصل له مالم يحصل لغيره، وما اخذه اوسع ثقافة وعلماً من غيره))^(١٠٢).

لقد استعان الإمام علي ﷺ بالاحاديث النبوية في توشيح خطبه، واضفاء الجمال الفني، وقوة التأثير فيها، كما استعان بالصور البيانية، والأوصاف التي وردت في كلام النبي ﷺ حيث اراد التعبير عن معنى مشابه لها. وقد أكد الإمام ﷺ عن مدى أهمية الحديث في احدى خطبه^(١٠٣). وما يرد على روايته من اشكال واقسام؛ فمنها ما هو حق وما هو باطل، أي ضعيف وصحيح، ناسخاً كان او منسوخاً، عاماً أو خاصاً، ومحكماً او متشابهاً، ثم قسم رواة الحديث على اربعة اقسام^(١٠٤):

- (أ) رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالاسلام.
 - (ب) ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه.
 - (ج) ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به، ثم أنه نهى عنه .
 - (د) واخر لم يكذب على الله وهذا ((عالم قدير كما هو راو ثقة وخبير، يميز موارد الحقيقة والمجاز، ويبين الحديث الواضح الذي لا يجوز تأويله بحال، والمشكل الذي يمكن تأويله بما يتفق مع العقل ومقاصد الشريعة...))^(١٠٥).
- لقد بدا الأثر النبوي في خطب الحرب للإمام ﷺ واضحاً جلياً، كما بدا الاسلوب نفسه في استمداده لأيات القرآن الكريم، فهو يضع امام نصب عينيه الأصل سواء من القرآن والحديث النبوي، ثم يعمل على استخراج صيغ جديدة،

^(٩٨) الحديث النبوي الشريف وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية: ١٥، ١٦.

^(٩٩) ظ: الخطابة في صدر الاسلام: العصر الديني- عصر البعثة الإسلامية: ١/ ١٩٩.

^(١٠٠) البيان والتبيين: ٢/ ١٧، ١٨.

^(١٠١) سورة النجم/ ٣-٤.

^(١٠٢) الإمام علي ومدرسة القرآن: ٥٦.

^(١٠٣) ظ: نهج البلاغة: ٢/ ١٨٨.

^(١٠٤) ظ: م: ٢/ ١٨٩، ١٩٠.

^(١٠٥) في ظلال نهج البلاغة: ٣/ ٢٤٤.

مضيفاً إليها أو محوراً إياها، بما يناسب والظرف الذي كان يحيط بالامام □ .
وقد كان اثر الحديث النبوي في خطب الحرب للإمام □ من خلال ما يأتي:

١ - الاقتباس باللفظ.

٢ - الاقتباس بالمعنى.

أولاً: الاقتباس باللفظ:

لم يصرح الإمام □ بأقتباسه من كلام الرسول □ على الرغم من تضمين النص نفسه في الأثر النبوي، إذ أن الإمام □ كان ((يرتضع افويق العلم، ويحتسي كؤوسه المترعة من ينبوعه الفياض الطافح بالعلم النبوي العزيز المستمد من الله عز وجل، فقد أدب الله محمد فأحسن تأديبه كما حدث عن نفسه بقوله ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)) وأدب محمد علياً فأحسن تأديبه أيضاً، فكان محمد غرس الله، علمه من علمه، وأدبه بأدبه، وكان علي غرس النبي علمه من علمه وأدبه بأدبه))^(١٠٦).

والامام لم يكن يخطب لمجرد التعبير أو ليضع الكلمة في معناها الحقيقي أو المجازي أو استعارة أو كناية، وانما الواقعية عند الإمام هي الفلسفة الحقيقية، ففي خطبه □ قدرة وتلقائية، وفي بيانه قوة، وفي كلامه فكرة.

وفي قول آخر للإمام □ من خطبة له يومئذ فيها إلى ذكر الملاحم، اذ قال:

"أَلَا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عَمَلَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَقَالِيدَ كَيْدِهَا وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا"^(١٠٧)

وهذا الكلام مقتبس من حديث للرسول □ ذكر فيه اشرط الساعة، اذ قال:

((تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلاذَ كَيْدِهَا، أَمْتَالُ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ، فَيَقُولُ: فِي

هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ، فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَحِمِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ، فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ يَدِي

ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئاً))^(١٠٨)

أوجز الإمام □ حديث الرسول □ وكان المقطع الذي اقتبسه الإمام من الحديث النبوي كافٍ لتبصير المسلمين وتذكيرهم ببقية الحديث، فمنهم من شهد الرسول □ وسمع منه هذا الحديث، فيعود إلى نفسه ليتذكر تفاصيل ذلك..

وقد عدَّ هذا الكلام من ((الاستعارة العجيبة، لانه □ شبه الكنوز التي أستودعتها بطون الأرض بافلاذ الكبد، وهي شعبها وقطعها، لأن شعب الكبد من شرائف الأعضاء الرئيسية، فكذلك الكنوز من جواهر الأرض عند إخراجها))^(١٠٩).

الإمام □ جاء بأساليب الصناعة فطرياً، واضاف لها وسائل الطبيعة الغنية، فبلاغته، هي نتيجة عقل نير بعيد الأغوار وثقافة دينية استقاها في صحبته للنبي □.

اقتباس آخر، يوحى للسامع أو القارئ عن حفظ الإمام □ وتشعبه بالحديث النبوي، اذ يأخذ الفاظاً ويترك آخر، فمن قوله □ وهو يصف اصحاب رسول الله يوم صفين- حين أمر الناس بالصلح- مفتخراً بهم، قال:

"قَلَمَا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئًا أُوطَانَهُ"^(١١٠)

وقد وردت ((استقر الاسلام ملقياً جرانه)) عن الرسول □، اذ قال:

((...يُلْقِي الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ إِلَى الْأَرْضِ...))^(١١١)

(١٠٦) حياة أمير المؤمنين في عهد النبي : ٥٥.

(١٠٧) نهج البلاغة: ٢١ / ٢، ٢٢، ط: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديث: ٤٦ / ٩.

(١٠٨) صحيح مسلم: كتاب الزكاة: ٧٠١ / ٢.

(١٠٩) المجازات النبوية: ٢٢٦.

(١١٠) نهج البلاغة: ١ / ١٠٥، ط: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٤ / ٤.

(١١١) مسند أحمد: كتاب المهدي: ١.

كما وردت هذه العبارة في كلام العرب كثيراً و «الجران باطن العنق، وقيل مُقَدَّم العنق من مذبح البعير إلى منحره، فإذا برك البعير، ومدَّ عنقه على الأرض قيل القى جرانه بالأرض»^(١١٢).
 لاشك أن هذه الاستعارات الواردة في حديث الرسول □ من ابتدأه، وتبقى في أذهان الناس، ومن ثم استعملها الإمام □ ليعيد إلى الأذهان كلام الرسول □ اذ جعل «(الاسلام) شيئاً محسوساً، له الارادة على الفعل وهو الاستقرار والغلبة فهو مجاز عقلي، و «ملقي بجرانه» كناية عن تمكن الاسلام وغلبته في النفوس.
 ومن كلام آخر للإمام □ عندما عزم على المسير إلى الشام بعد حرب الجمل، قال:
 "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْتَاءِ السَّفَرِ"^(١١٣)
 وهو دعاء دعا به □ عندما وضع رجله في الركاب، وقد ورد هذا الدعاء عن النبي □ اذ قال:
 «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْتَاءِ السَّفَرِ»^(١١٤).

فقد جعل النبي □ من «السفر وشقته وتكاليفه بمنزلة الوعثاء التي قاطعها تعب والساري فيها نصب»^(١١٥).
 جاء الإمام □ بهذا الدعاء، تذكيراً للناس، ودعوة من الإمام للتخلق بالخلق النبوي من خلال التوجه إلى الله تعالى في السفر والدعاء به، والهدف من ذلك تربوي ايماني، يهدف إلى شد المؤمن إلى ربه وهو لا يدري ما ينتظره في غيبه، وبهذا تحل الطمأنينة في النفس.
 وهكذا فقد كان كلام الإمام □ مرآة لبعض ما ورد من أقوال الرسول □ وللمجتمع، نفساً وعقلاً وسلوكاً. وقد بدا واضحاً وجلياً احكام النسخ بين اقوال الرسول □ وما جاء في خطب الحرب للإمام □ «(الثناء على الإمام كالثناء على ضوء القمر المستمد من نور الشمس)»^(١١٦).

ثانياً: الاقتباس بالمعنى:

بلاغة الرسول □ وجوامع كلمه المأثورة؛ اذهلت ارباب النهى، فلم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة، وكان يشير □ إلى المعنى دون التبسط في ايضاحه، وعلى هذا نجد كثيراً من الصور البيانية التي أخذها الإمام □ عن الأثر النبوي، محوراً فيها، ومن ثم تبعث في النفس إحساساً وكأنها تطرق السمع لأول مرة.
 ويقول □ من كلام له في اصحابه في ساحة الحرب، وهو يحثهم فيها على القتال:
 "الرَّايحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرُدُّ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي"^(١١٧).
 ورد في الحديث النبوي الشريف من المعنى نفسه، اذ قال □ في وصية وصى بها أسامة بن زيد لما أراد بعثه إلى مؤتة، وقد ورد الحديث بالفاظ عدة والمعنى نفسه، اذ قال □..

^(١١٢) لسان العرب: مادة «جرن».

^(١١٣) نهج البلاغة: ٩٦ / ١.

^(١١٤) سنن ابي داود: كتاب الجهاد: ٣٢ / ٢.

^(١١٥) المجازات النبوية: ١١٣.

^(١١٦) علي والقرآن: ١٤.

^(١١٧) نهج البلاغة: ٤ / ٢.

((الْجَنَّةُ تَحْتَ بَارِقَةِ السَّيْفِ))^(١١٨).

وقال □ ايضاً:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَتَّعُوا بِلِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَأَصْبِرُوا، وَأَعْلَمُوا إِنَّ

الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْفِ))^(١١٩).

وحديث آخر:

((الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي السَّيْفِ وَتَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ وَلَا يُقِيمُ النَّاسَ إِلَّا السَّيْفُ، وَالسَّيْفُ مَقَالِيدُ الْجَنَّةِ

وَالنَّارِ))^(١٢٠).

ان اقتباس الإمام □ لهذا المعنى، يوضح معنى أهمية الجهاد بوصفه سبباً في الوصول إلى الجنة عند الضرب به في سبيل الله، ثم هو تطمين لقلوب اصحابه بأنهم يسبرون على هدى الرسول في جهادهم، فالقول ((مجاز... وليس الجنة تحتها- تحت السيوف- على الحقيقة، وإنما المراد ان الصبر تحتها لجهاد الكافرين ودفع أعداء الدين يفضي بالصابر إلى دخول الجنة ونزول دار الأمانة))^(١٢١).

ومن قول آخر للإمام □ يذم فيه اتباع الشيطان:

"أَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَ، وَأَتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَكَاءَ، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ"^(١٢٢).

قوله □ ((باض وفرخ، ودبَّ ودرج)) كناية عن توطئة الشيطان في صدور من يتبع اغواء الشيطان، وفي الوقت نفسه تكون استعارة للوسوسة والاغواء.

وقد ورد هذا في حديث الرسول □ في المعنى ذاته من وصيته لأمرأه الجيش الذي بعثه إلى مؤتة، اذ قال:

"وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ لِلشَّيْطَانِ فِي رُؤُوسِهِمْ مَفَاحِصَ قَافِلُوهاَ بِالسَّيْفِ"^(١٢٣)

وهذا كان وصف لشدة الارتكاس في الغي ((والمفحص في الأصل، الموضع الذي تبخته القطاة لتجثم عليه أو لتبيض فيه، وانما قيل له مفحص لانها لاتجثم فيه الا بعد ان تفحص التراب عنه توطئه لمجتمها وتمهيداً لجسمها))^(١٢٤)، وقد ورد هذا الكلام عن العرب ايضاً.

^(١١٨) شرح صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير: ١١٧/١٢.

^(١١٩) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: ٣ / ١٣٦٢، ١٣٦٣.

^(١٢٠) تهذيب الاحكام: كتاب الجهاد: ١٢٢/٦، الكافي: كتاب الجهاد: ٢/٥.

^(١٢١) المجازات النبوية: ١٠٨.

^(١٢٢) نهج البلاغة: ٤٢/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٢٨/١.

^(١٢٣) المجازات النبوية: ٥١.

^(١٢٤) المجازات النبوية: ٥١.

كان الرسول □ افصح العرب، فهو لا يتكلف القول ولا يقصد تزويقه، ولا يجاوز به مقدار الابلاغ في المعنى الذي يريد إيصاله إلى السامع، وقد كان □ يستمد أحاديثه من تعاليم رسالته، ومنها تغذت اقواله واكتسبت إبعادها واعماقها.

ومرة أخرى يرفدنا الإمام □ من اقوال الرسول □ بالمعنى، من كلام له في أصحابه في بعض أيام صفين، وهو يحث على القتال، اذ قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلَّبَّوْا السَّكِينَةَ..." (١٢٥)

اراد الإمام □ ان يحث أصحابه، على ان يجعلوا من السكينة اشبه ما يكون بالجلباب القريب من الجسد، وهو من الاستعارات اللطيفة، فقد أبرز □ المعقول المجرد بصورة المحسوس الملموس.

وهذا ما جاء عليه الحديث النبوي الشريف حيث قال □:

((وَلَا قَلَدَ اللَّهُ عَبْدًا قَلَادَةً خَيْرًا مِنْ سَكِينَةٍ)) (١٢٦)

وهنا جاءت السكينة، ايضاً قريبة من الجسد، والقلادة عادة تكون في العنق، فكانتها اشبه بقربها من الجلباب فكلاهما يلامسان جسد الانسان، وعلى هذا نجد حديث الرسول □ ((يتغلغل في اعماق الذهن ليزرع الفكرة، وفي اغوار النفس ليخلق العاطفة، وفي محيط الامة ليوجه السلوك)) (١٢٧).

قد انتفع الإمام □ بصياغة ما أثر عن الرسول □ فكانت المعاني محكمة صادقة والبصيرة نافذة، فضلاً عن الالهام الذي وهبه الله اياه.

يقول الإمام □ من خطبة له يصف فيها أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام، وهو يحثهم فيها على القتال:

"وَقَدْ قُلِّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ، فَمَا وَجَدْتُني يَسْعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ

أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَنِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ..." (١٢٨)

كانت الاستعارة هنا أقدر على تجسيد ما كان يريده □ فقد نظر في هذا الامر وتدبره ملياً، ودرسه بدقة وامعان من شتى جهاته.

وقد أخذ الإمام هذه الصورة البيانية من الأثر النبوي الشريف اذ قال □:

((أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ)) (١٢٩)

الكلام مجاز، فلا ظهر للآية ولا بطن على الحقيقة، وانما ((المراد ان لها فحوى وظاهراً وسراً وباطناً... وهذا القول ينصرف على الآي المتشابهة دون المحكمة... والمتشابهة، هي التي يستعمل فيها النظر ويعمل فيها الفكر)) (١٣٠).

نجد الإمام □ يعتمد على المعاني ذاتها التي أشار إليها الرسول □ في أحاديثه الشريفة، وأخذ يولد منها صوراً جديدة، بالفاظ جديدة، ولكنها بالتالي تأتي مطابقة للأثر النبوي الشريف.

من ذلك قوله □ في يوم حنين لما رأى مجتلد القوم :

((الآنَ حَمِيَّ الْوَطَيْسِ)) (١٣١).

وهذا مالم يسمع به من احد قبل الرسول □ وهو مجاز من باب الاستعارة، فقد شبه □ الحرب بالنار لحر

مواقع السيوف، ولشدة العراك، وكثرة الحركة، ولأنها تأكل الرجال كما تأكل النار الحطب.

أخذ الإمام □ هذه الاستعارة واشتق منها او صاغ على منوالها صورة أخرى من المعنى نفسه حينما قال في

أصحابه واصحاب رسول الله □:

"وَاللَّهُ لَكَائِي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُ، أَنْ لَوْ حَمَسَ الْوَعْيَ وَحَمِيَ الضَّرَابُ، وَقَدْ انْفَرَجْتُ عَنْ ابْنِ

أَبِي طَالِبٍ انْفَرَجَ الْمَرَأَةُ عَنْ قُبُلِهَا" (١٣٢).

(١٢٥) نهج البلاغة: ١/ ١١٤، ط: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٦٩/٥.

(١٢٦) سنن أبي داود: كتاب المقدمة: باب ٣٤.

(١٢٧) نحو أدب اسلامي: ٣٣.

(١٢٨) نهج البلاغة: ١/ ١٠٣، ط: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٦/٤.

(١٢٩) المجازات النبوية: ٤٩.

(١٣٠) م.ن: ٤٩.

(١٣١) م.ن: ٤٤.

(١٣٢) نهج البلاغة: ١/ ١٨٩.

المعنى في قول الإمام □ يلتقي كثيراً مع قول الرسول الكريم □ فـ ((حمي وحمس)) يعطيان معنى الشدة والصلابة وبين ((الوطيس والوغى)) تعطي معنى الفوران والجلبة^(١٣٣)، والمعنى الجديد ((حمي الوطيس)) ورد ما يقابله من معنى جديد أيضاً، جاء به الإمام □ بقوله ((حمي الضراب)) أي اشتد وقع السيوف، أو الضرب بها. تجد ما نقل من كلام النبي □ على جهة الصناعة البيانية ((حسن المعرض، بين الجملة، واضح التفصيل ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً، ولا استعانة من عجز، ولا توسعا من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه))^(١٣٤).

من حديث للرسول □ تحدث فيه عن فضل الجهاد، ومكانته، قال:

((...قَالَ: سئِلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ خَيْرٌ، قَالَ: إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ، قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سِنَامُ الْعَمَلِ، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ يَارَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ))^(١٣٥).

قوله □ الجهاد في سبيل الله سنام العمل، يقصد من خير الأعمال في الدنيا بعد الايمان بالله ورسوله، وقد جاء الإمام □ بصيغة جديدة. بعد أن ارتوى من اقوال الرسول □ ما يجعله مبدع في تعبيره، اذ قال يصف اصحاب رسول الله، وذلك يوم صفين حيث امر الناس بالصلح:

"وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا اخْضَرَ لِلإِيْمَانِ عُودٌ"^(١٣٦). ان سنام العمل هو الجهاد، ولا يقوم الدين ولا يخضر الايمان ألا بسنام العمل، وهو الجهاد، فمن خير الاستعارات التي جاء بها □ لبيان فضل الجهاد وأهميته، هذه الاستعارة النابضة بالحس والحركة والحياة. مرة أخرى يأتي الرسول الكريم □ بصورة بيانية جديدة واصفاً فيها الاسلام، قال:

((تَدُورُ رُحَى الْإِسْلَامِ عَلَى رَأْسِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ...))^(١٣٧).

اذ شبه □ الاسلام بالرحا القائمة على قطبها ((ودور الرحا يكون عبارة عن حالين مختلفين: احدهما مذمومة، والاخرى محمودة.. كان دور الرحا فيها محموداً لمن دارت له، ومذموماً لمن دارت عليه...))^(١٣٨).

جاء الإمام □ موظفاً التشبيه نفسه، من كلام له حيث جمع الناس وحضهم على الجهاد، فقال:

"إِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا وَاضْطَرَبَ ثِقَالُهَا، هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السَّوُّ"^(١٣٩).

تشبيهه بليغ جاء به الإمام □ اذ شبه نفسه بقطب الرحى أي مركزها في ثباته وعدم تزعزعه عن الحق، ونصرته والدعوة اليه، ولعله كنى بالرحى عن امر الخلافة، والامام قطب الرحى في معرفة الاسلام وحقائقه،

^(١٣٣) ظ: لسان العرب: مادة ((حمي)) ، ((حمس))، ((وطس)) ، ((وغى)) .

^(١٣٤) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣٥٩.

^(١٣٥) مسند أحمد: كتاب الجهاد: ٢ / ٢٨٧.

^(١٣٦) نهج البلاغة: ١ / ١٠٥، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤ / ٣٤.

^(١٣٧) مسند أحمد: كتاب الأذكار: ٧ / ٣٩٠.

^(١٣٨) المجازات النبوية: ١٢٢.

^(١٣٩) نهج البلاغة: ١ / ٢٣٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ٢٨٦.

وعلمه، ويؤيده قوله □ بالنسبة للخلافة :

"أَنَّ مَحَلِّيَّ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ"^(١٤٠).

الإمام □ كان يخرج بالافكار مهما كانت عميقة في روعة من الرونق والجمال، ومن ثم كانت خطب الحرب للإمام ذات مستوى رفيع وبلغ بفضل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مما جعلها ترتقي إلى مستوى فني وثقافي، فضلاً عن ان الإمام كان يدرك الحقائق بوضوح، ويعتقدها بصدق، ويحرص على اذاعتها بين اصحابه، لذا نجد في عباراته داخل خطبه صدق ناتجاً من قوة الاخلاق، وصدق العقيدة، وصحة الفهم وبعد اغواره.

ندرك تماماً أن للحديث اثرًا بالغاً في بناء الحضارة الاسلامية وفي اغناء العربية من وجهين: الأول: اللفظ بنقله من معنى إلى آخر، وهو ما نعنيه بـ (المجاز)، والثاني: وضع اللفظ وضعاً بعد ان لم يكن وهو ما يدعى بـ(الارتجال)^(١٤١). وعلى هذا الاساس كانت افكار الإمام □ اسلامية نابعة من ذهنية اسلامية، صاغها أدب القرآن والحديث.

(١٤٠) نهج البلاغة: ٣٠ / ١، ٣١.

(١٤١) ظ: الحديث النبوي الشريف واثره في الدراسات اللغوية والنحوية: ١٢٣.

لقد اقتبس الإمام □ من الحديث لفظة وانتفع بصوغه، واستمد تراكيبه وبيانه من إثر الرسول من أسلوبه ((فهو السهل الممتنع والبلاغة القريبة البعيدة والفصاحة المعجزة الرائعة، والنمط الغريب، والطريقة المحكمة، والنظم العجيب))^(١٤٢)، والاقتباس هو دليل على معرفة الإمام □ وحفظه وأدراكه لأحاديث الرسول □، فقد كان يهدف إلى التذكير بالتزامه بمنهج الرسول □ وموازنة حال أصحابه بحال اصحاب الرسول □ .. فجاء الإمام □ من المعاني ما هو حكيم وصادق ورفيع ورأي ناضج، فضلاً عن سمة العبقرية التي وهبها الله سبحانه وتعالى له، ومن ثم ظل الحديث النبوي الشريف مورداً عذباً من الثقافة الأدبية على توالي العصور.

(١٤٢) الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام: ٦١.

المبحث الثالث

الشعر العربي

الشعر العربي

أحدى صور الحياة ومرايا النفوس، يعبر عما يختلج في الضمير، وينطق بما تقدمه البيئة من عادات وأخلاق، وقد كان - الشعر - حافلاً بالمعاني والدلالات والتي يمكن اعتمادها وثيقة تاريخية فـ ((لا تعرف انساب العرب وتواريخها، وأيامها، ووقائعها، إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها، ومستنبت أدبها، ومستودع علومها))^(١٤٣)، فضلاً عن أن اللغة التي كتبت فيها الأدب الجاهلي عامة، هي اللغة المثالية الموحدة والتي غلبت عليها لهجة قريش.

ولمّا كان للشعر تأثير في نفوس العرب وصقل لمشاعرهم لما تنسم به لغته من الحنق والمهارة، صار له كبير الأثر في توجيه عواطفهم وأفكارهم، وما برع من الشعر، هو ((ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع، وما سوى ذلك، فإنما لقائله فضل الوزن))^(١٤٤).

وللشعر الجاهلي قيمتان، فنية وتاريخية^(١٤٥)، فقد كان الشعراء يستعينون بالألفاظ والأساليب المصورة التي تجعل المنظر بارزاً ناطقاً، فتواز هذه الظاهرة ما يذكره من الوان المجاز والتصوير ومن ثم تبرز الصورة المؤدية غرضها من التوضيح والتأثير في آن واحد، مما حرى بالصورة أن تحتل مكاناً رفيعاً، نتيجة تزواج براعة التصوير ونبل المعنى.

جاء الإسلام، والقرآن، والحديث النبوي، فتح كل منها للأدب العربي أفقاً جديداً بما أتى به من معان جديدة، وأصبحت سبل الأداء القديمة لم تعد تقوى على النهوض بالأفكار الجديدة فقد بدلت الدعوة الإسلامية الكثير من المفاهيم التي ألفها الناس واعتادوا عليها، فـ ((كان في كلام الله وحديث نبيه سبل منهج من المعاني، ومادة واسعة من الأساليب وسط منظوم من الألفاظ، فكان كل ذلك قدوة للعرب حسنة، هجروا به حوشهم من اللفظ، ومعقدتهم من الأساليب وسفسافهم من المعاني))^(١٤٦).

كان جل عناية العرب في جاهليتهم، الشعر يحفظونه ويروونه، فلما جاء الإسلام، صارت الدولة للنثر، فالشعر غالباً ما يخاطب العاطفة، والنثر يخاطب العقل، ومن ثم كان الاتجاه يمضي نحو النثر متمثلاً في الدرجة الأولى في الخطابة، فكانت ابلغ من الشعر في حسن التمثيل والتعبير والأداء^(١٤٧). فقد رفع الإسلام من شأن العقل، وخفض من غلواء العاطفة ودعوته إلى الاقناع بالمنطق والحجة، والقول الصادق المبين، وقد علا شأن الخطابة بعد ذبوع آثار بلاغة القرآن، والحديث النبوي، في النفوس والعقول والأذواق و((مما يعرف من الخطابة والكتابة انهما مختصان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص))^(١٤٨)، ومن الطبيعي أن ينصرف الإسلام عن الشعر الذي يناهض الدين ويعارضه، ومن ناحية أخرى نجده -الإسلام- يغذي الشعر الملتزم في الدفاع عن العقيدة، وجعله أداة من أدوات الدعوة في التعرض للخصوم، ولكن هذا الشعر لم ينفرد بخصيصة فنية أو جمالية تربو على الشعر الجاهلي، ومن ثم، اخذ يهذب ويسمو، لاتصاله بالأصول الإسلامية والفضائل الخلقية. نجد الخطبة الحربية تحمل في طياتها شيئاً من روح الشعر، لأثارتها كوامن النفس عند أصحابها بجانب مقتضيات العقل، فضلاً عن اقتباسه من القرآن الكريم والحديث النبوي.

تمكن الإمام □ بأصالة، أن يوفق بين القيم الإيجابية المتوارثة، والمثل الدينية الجديدة، وبين الواقع الجديد المترامي في أبعاده والضارب في أعماقه، فضلاً عن ((ملكة الكلام ومعرفة بديهية بوسائل التعبير وأساليب الفن مما جعل نثر علي خزانة جمعت بين الطبع والصنعة جمعاً شديداً حتى لا تكاد لا تتميز الصنعة عن الطبعة لحسن تمازجها وتآلفهما، ولحسن تأثر هذا بتلك، فمقدرة الرجل غنية بوسائل الإبلاغ التي يعتمد إليها عن غير اجتهاد عقل، ويقصد إليها

^(١٤٣) كتاب الصناعتين: ١٤٤.

^(١٤٤) العمدة: ١/ ١٢٢.

^(١٤٥) ظ: تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري: ٥٨.

^(١٤٦) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام: ١٣.

^(١٤٧) ظ: الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية: ١٤٩.

^(١٤٨) كتاب الصناعتين: ١٤٢.

قصداً للتقرير، فتأتي التشبيهات والصور والامثال والاستعارات... وكأنها من وحي الخاطر والطبع، ومن مقتضيات المعنى الذي يختلج في الصدر وتبعته عقيدة قوية، كل ذلك في لغة جاهلية صقلها ولينها العهد الجديد والحضارة الجديدة^(١٤٩).

كان الشعر في حروب الامام □ من الاسلحة التي استعملها كلا الفريقين المتقاتلين، فهو «ديوان العرب» ولأن قلب العربي لازال يهتز للشعر، فقد «روي عن النبي □ أنه قال: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين»^(١٥٠). كان نصيب الشعر في مد الإمام □ بالصور البيانية محدود؛ لأنها لم تعد ذكريات فاعلة في الانسان العربي المسلم في اطاره الجديد.

وهناك من يقول ان الإمام له شيء من الشعر، كما كان يحفظ الشعر، ويحسن استثماره في نصوص خطبه عامة، وخطب الحرب خاصة، وعلى الرغم من قلة رفق الشعر لصور الإمام □ الا ان هذه القلة القليلة التي جاء بها هي لغرض معالجة تربوية أو اخلاقية أو تنقيفية تتناسب والوضع الذي كان يحيط به. ولا بد من الإشارة إلى ان سرعة خطبة الحرب والغاية منها كانت وراء ابتعاد الإمام □ عن الاستشهاد بالشعر في تلك الخطب إلا في الحدود التي يأتي فيها الشعر متلائماً مع مراد الإمام من هدفه في الخطبة، فهو يسعى إلى شحذ همم اصحابه وتبصيرهم بأهمية الجهاد وفضله من خلال الشريعة الاسلامية، وهذا أقوى في تأثيره على النفوس.

لقد ورد الشعر في خطب الحرب للإمام □ في اربع منها فقط، فقد كان يأتي البيت أو البيتين من القصيدة كي يستشهد بالحكمة والقول السديد. قال □ من خطبة له، في بعض اصحابه بصيغة العتاب والتقريع، نتيجة تشاغلهم عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي، قال:

"مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبَضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلَّا أَنْتِ تَهْبُ أَعَاصِيرُكِ. فَقَبْحَكِ اللَّهُ"^(١٥١) وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَعَمْرُ أَيْبِكَ الْخَيْرُ يَا عَمْرُو إِنِّي عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلٍ ^(١٥٢)

يرى الإمام □ في هذا البيت خير مثال ودليل عن قدرته في ((قبض وبسط)) السلطة في الكوفة فما الخلافة عليهم سوى أمر هين وبسيط، وكان الكوفة كيقايا الدسم القليل في الإناء بعد ما فرغ منه، ومن ثم قدرة الإمام في السيطرة عليها، جداً يسير لولا مخالفتهم له في الرأي، فحاول □ ان يقلل من شأن الكوفة وأهلها. عن طريق استشهاد بهذا البيت.

يمتاز أسلوب الإمام □ في الاستشهاد بالشعر عامة، بصفائه ومتانته وقوة تأثيره، ووصوله إلى قرارة النفوس وامتلاكه الشعور والوجدان، ومن ثم في الاقتناع والتأثير. ومن الخطبة نفسها يعود الإمام □ متمثلاً بقول الشاعر موضحاً الفرق بين أهل الشام واصحابه، في اجتماع كلمتهم وطاعتهم لاصحابهم، اذ قال □:

"أَمَّا وَاللَّهِ لَوِ دِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنْ غَنَمٍ"^(١٥٣) وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

هَذَا لَوْ دَعَوْتُ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ ^(١٥٤)

اراد الشاعر ان في هذه القبيلة^(١٥٥)، أي بنو فراس بن غنم من الرجال الشجعان من يأتيك كـ((الارمية)) وهي

^(١٤٩) تاريخ الأدب العربي: حنا الفاخوري: ٣٢٦.

^(١٥٠) العمدة: ٣٠ / ١.

^(١٥١) نهج البلاغة: ٦٤ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٣٢ / ١.

^(١٥٢) لم اعثر له على نسبة لقاتل معين ووه محقق شرح نهج البلاغة (ابن ابي الحديد) فنسبه للمتنبى، والمتنبى في القرن الرابع، ظ: شرح نهج البلاغة: الفهارس: ١٣٩.

^(١٥٣) نهج البلاغة: ٦٥ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٣٣ / ١.

^(١٥٤) البيت في لسان العرب: مادة "رمى" ونسبه إلى ابي جندب الهذلي.

^(١٥٥) بنو فراس بن غنم، حي مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فراس، وهو جندل الطعان ومنهم - ربيعة بن مكرم بن حراث بن جذيمة بن علقمة بن فراس، الشجاع المشهور، حامي الضعن حياً وميتاً، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٤٢ / ١.

السحابة العظيمة وقد خصّ الشاعر ((الحميم)) وهو سحاب الصيف، لأنه ((عظيم القطر، شديد الوقع))^(١٥٦)، ووصفهم بسرعة تلبّيتهم لدعوة من يستغيثهم من قوله هنالك لو دعوت اتاك منهم.

فالامام □ يدعو اصحابه ويتباطنون في الاستجابة، بينما تلك القبيلة، ما ان تدعوهم حتى يأتوك كقوة مطر الصيف الذي يأتي بسرعة واذا كانت تلك القبيلة تستجيب هكذا وهي على جاهليتها فالأولى بأصحابه ان يكونوا اكثر استجابة منهم وهم يطمعون في أجر الجهاد وفضيلة الاستشهاد في المعركة، فهو □ يحاول تحفيزهم لقتال خصومهم من خلال الموازنة بينهم وبين فرسان تلك القبيلة، وما البيت الا تعبير عن أمنيته في أن يكون له الف فارس من تلك القبيلة الشجاعة ورغبته هذه جاءت نتيجة تقاعس بعض اصحابه عن الجهاد.

ينتقي الإمام □ الابيات الشعرية ويضمنها في خطبه، فيأتي مما هو شائع معروف، فيوظف الشعر لخدمة غرضه لأجل التأثير والتوضيح فيأتي كلامه نابضاً بالحياة.

وهكذا نرصد التفاعل بين الموروث والجديد، ومن خطبة حربية اخرى للإمام □ عند خروجه لقتال أهل البصرة، قال:

"وَاللّٰهُ مَا تَنْقُمُ مِنَّا فَرِيْشٌ، إِلَّا أَنْ اللّٰهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا، فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ"^(١٥٧)

وتمثل بقول الشاعر :

أَدْمَتُ لَعْمَرِي شُرْبَكَ الْمَخْضَ صَابِحًا وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةِ الْبُجْرَا
وَحُنُّ وَهَبَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ عَلِيًّا وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا^(١٥٨)

ان الإمام □ يشير إلى ان قريشاً لم يكونوا من أهل العلاء ولكنهم احتلوا هذه المكانة بفضل آل البيت عليهم السلام، لأن الله تعالى اختارهم ليكونوا اسياد الناس ان كانت قريش معهم، وقد تلمست قريش هذا الشرف الذي اختص به بنو هاشم فنقموا عليهم بسبب ذلك.

وكان الإمام □ متيقناً ان مفاهيم الشعر وقيمه لن تتغير بين عشية وضحاها، وان خفت صوت الشعر امام الاسلام.

فقد كان □ يستهدف الكشف عن شكل من الوقائع والقيم والحوادث في الماضي ومن ثم ربطها ومزجها بالحاضر، عن طريق، تضمين بعض من خطبه لبعض من الابيات الشعرية، فقد بدأ □ يجنح إلى التعليل ويأتي بالبراهين العقلية دونما اثاره مباشرة للعواطف، لان ((الفكرة اصل في النثر، والعاطفة مساعد، وعكس ذلك في الشعر حيث تنصدر العاطفة متكئة على حقيقة تسندها وتبعث فيها الصدق والقوة والبقاء))^(١٥٩).

ومن خطبة اخرى للإمام □ بعد التحكيم، قال:

"فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ"^(١٦٠).

وتمثل بقول الشاعر:

أَمَرْتُكُمْ أُمْرِي بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ تَسْتَبِيهُوا التُّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْعَدِ^(١٦١)

لقد كان الإمام □ يرفض الاستجابة لمطالب أهل الشام بالتحكيم، ولكن اصحابه اجبروه على الموافقة، وقد بين لهم ما سيؤول إليه التحكيم، بل لا تحكيم مع هؤلاء، ولكن ذلك لم ينفع، فوافقهم غير مختار على التحكيم، وحينما آلت الأمور إلى ما آلت إليه جاء استشهاد بهذا البيت تجسيدا لما كان، فقد امرهم من قبل ولكنهم لم يقبلوا النصح في البداية، وفي النتيجة تبين لهم نصيحة الإمام بعد فوات الأوان.

وهكذا كانت نتيجة التحكيم مماثلة لنتيجة اخي دريد بن الصمة ((وهو عبد الله (عارض)، أخو دريد بن الصمة،

^(١٥٦) لسان العرب مادة "رنى".

^(١٥٧) نهج البلاغة: ٨٢ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٨٥ / ٢.

^(١٥٨) البيت نسبته في شرح ابن ابي الحديد/ تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم إلى كعب بن زهير ولم اجده في ديوان كعب.

^(١٥٩) الاسلوب: ٦٣.

^(١٦٠) نهج البلاغة: ٨٦ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٩١ / ٢.

^(١٦١) الاستشهاد بهذا البيت اخذه الإمام □ من قصيدة لدريد بن الصمة يرثي بها اخاه قال في مطلعها:

نصحت لعارض واصحاب ورهط بني السوداء القوم شهدي

عــارض

ظ: شرح ديوان الحماسة: المرزوقي: ٨١٢ / ٢.

لم يستمع لنصح اخيه، فكان ان لقي حتفه^(١٦٢) - فكلاهما لم يأخذ بالنصح.
كان الإمام □ ذا ثقافة واسعة، مما اتيح له ان يصوغ هذه المزاوجة الفنية الخالدة، والتي بقيت إلى عصرنا هذا، دون ان تفقد روعتها، بل تزداد كلما اتسعت افاق الانسان الثقافية وأصبح اوسع فهماً وأنفذ بصيرة، فالامام ((يهضم ما يقرأ ويكتسب خبر ما يقرأ لثروته اللغوية وحسه الفني ويتمثله في اطاره الشعري))^(١٦٣)، ومن ثم يسخر الشعر في سبيل المصلحة الاسلامية والأهداف الحربية.
نخلص من كل ما سبق ذكره ان الشعر العربي لم يكن له تأثير سوى القليل منه فقط، أي ما يمكن ان يرفد الإمام بالأمثلة ذات تأثير تربوي اخلاقي يتناسب وعقيدة الإمام. وان كانت الفاظ خطب الحرب للإمام □ عذبة وسهلة، وبعيدة عن الحوشي والغريب، وسلامتها من الخطأ والعيب، هو بفضل القرآن، والحديث، فقد انتهل □ منهما منذ نعومة أظفاره.

^(١٦٢) شرح ديوان الحماسة: المرزوقي: ٨١٤ / ٢.

^(١٦٣) الابداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري: ٧٩.

المبحث الرابع

الأمثال

أولاً: أ – التضمين

ب – التلميح

ثانياً: الأمثال المبتكرة

تأثير الأمثال العربية :

تعد الأمثال من أغزر انواع النثر الجاهلي وفرة وصدقاً، وقد أكثر العرب من صنعها وضربها في جميع أحداثهم وشؤون حياتهم، فقد وردت في كلامهم نظماً ونثراً، فضلاً عن ورودها في أي الذكر الحكيم، فقد ((كانت الأمثال كالرموز والاشارات التي يلوح بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً))^(١٦٤). يأتي القصد من ضرب الأمثال ((أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لان الغرض في المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك هو النهاية في الايضاح))^(١٦٥)، وهو صورة ناطقة عن حياة البدوي، من اخلاق وعادات وطريقة العيش فضلاً عن الحروب والغزوات.

وتبقى الأمثال: ((صورة حية ماثلة لمشهد واقعي او متخيل، مرسومة بكلمات معبرة موجزة، يؤتى بها غالباً لتقريب ما يضرب له من طريق الاستعارة او الكناية او التشبيه))^(١٦٦). جاء الإمام علي □ بالأمثال، بوصفها بيئة، تأكيداً لصحة ما يقول في خطبه الحربية، وهي تنم عن راحة عقل ووعي وثقافة، كما عُد معرفة ايام العرب وأمثالهم آلة من الآت علم البيان وأدواته^(١٦٧). لقد عني الإمام □ بالحجة والبرهان، فهو يرمي إلى القناعة المنطقية، لتكون المبادئ أكثر عمقا في نفوس اصحابه وسامعيه، وعليه فقد استقى الإمام من الأمثال بطريقتين اثنتين فضلاً عن ما جاء به □ من ثقافته الخاصة وهن على التوالي:

ب- التلميح

أ- التضمين

ثانياً- الأمثال المبتكرة.

أولاً:

أ- التضمين

جاء الإمام □ بروائع البيان العربي الجاهلي، المتحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً، ومن ثم جاء بها في خطب الحرب، فقد عدت الأمثال ((مراًة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية))^(١٦٨). من الأمثال التي وردت ضمن خطب الحرب للإمام □ قول العرب : ((ذهبوا أيدي سبا، تفرقوا أيدي سبا))^(١٦٩) جاء بها □ من خطبته في عتاب وتقريع بعض اصحابه، قال: "أَلْتُو عَلَيْكُمْ الْحَكْمَ فَتَنْفَرُونَ مِنْهَا، وَأَعْظَكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَنْفَرُونَ عَنْهَا، وَأَحْكُمَكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ الْقَوْلِ حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيْدِي سَبَأٍ"^(١٧٠).

((متفرقين ايادي سبأ)) جاء □ بهذا المثل، لغرض المماثلة والمشابهة بين حال ما كان عليه أولاد سبأ من تفرق، وحال بعض من اصحاب الامام، حين يعظهم ويحثهم على الجهاد، فقد جاء النص حاملاً معه احد انواع التشبيه -التمثيلي- فالامثال تتوفر فيها ضروب من القيم التصويرية من تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل. والامام □ حينما يشير إلى المثل فكأنه يستحضر قصته في اذهان اصحابه، ومن ثم يوازنوا بين هذا وذاك،

^(١٦٤) المثل السائر: ٥٥ / ١.

^(١٦٥) مفاتيح الغيب: ٢٩٣ / ١.

^(١٦٦) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٦٠.

^(١٦٧) ظ: المثل السائر: ٥٣ / ١.

^(١٦٨) الأدب العربي في الجاهلية والاسلام: ١٧١.

^(١٦٩) "سبأ هو ابو عرب اليمن كان له أولاد كثير، ثم تفرق اولئك الاولاد اشد التفرق". مجمع الأمثال: الميداني: ٢٧٥ / ١.

^(١٧٠) نهج البلاغة: ١ / ١٨٨، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ٧٤.

لأنهم يعرفون تفاصيل قصص الأمثال.

ومن المعنى نفسه - عتاب وتقريع - في بعض اصحابه □ جاء بقول العرب:

((لَا تَنْقِشُ الشُّوْكَةَ بِمِثْلِهَا فَإِنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا))^(١٧١).

جاء □ بهذا المثل ضمن كلام له بعد ليلة الهرير، اذ قال:

"أُرِيدُ أَنْ أَدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشُ الشُّوْكَةَ بِالشُّوْكَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا"^(١٧٢)

تشبيه تمثيلي جاء به □ فهو يستعين ببعضهم على بعض وقد ورد مفهوم المثل بما سبق قوله عندما قال: "أريد أن ادأوي بكم وانتم دائي".

قول آخر للعرب من المعنى نفسه جاء به الإمام □ ضمن خطب الحرب، اذ قالوا:

((وَلَوْ كَانَ يُطَاغُ لِقَصِيرِ أَمْرُهُ))^(١٧٣).

وورد هذا المثل عند الإمام □ من خطبة له بعد التحكيم، اذ قال:

"وَقَدْ كُنْتُ أَمْرُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي لَوْ كَانَ يُطَاغُ لِقَصِيرِ أَمْرٍ، فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالَفِينَ الْجَفَاءَ"^(١٧٤)

"لو كان يطاغ لقصير أمر" مثل يضرب لكل ناصح يعصى، وهذا ما أراده الإمام □ فقد كان ناصحاً لاصحابه قبل التحكيم لكن دون جدوى، ونتيجة معصية نصيحته، فقد أصبح على ما هم عليه بعد التحكيم، من الحسرة والندامة.

مرة أخرى يأتي أمير المؤمنين بمثل في عتاب وتقريع بعض اصحابه ايضاً، اذ قالت العرب:

((رَجَعَ بِأَفُوقٍ نَاصِلٍ))^(١٧٥) او ((نَجَا مِنْهُ بِأَفُوقٍ نَاصِلٍ))^(١٧٦)

ورد هذا المثل في خطبتين للإمام □ وكلاهما في ذم المتخاذلين من اصحابه، اذ قال:

"وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ، أَيُّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ، الْمَعْرُورُ وَاللَّهِ مَنْ غَرَّرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللَّهِ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفُوقٍ نَاصِلٍ"^(١٧٧)

وقوله □ في الخطبة الثانية:

"الدَّلِيلُ وَاللَّهِ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفُوقٍ نَاصِلٍ"^(١٧٨)

و"الافوق الناصل" هو السهم المكسور، والسهم اذا كان مكسور الفوق، عارياً من النصل لم يؤثر في الرمية^(١٧٩)، وهذا ما أراده الإمام □ فقد شبههم، نتيجة ضعفهم وعجزهم عن النكاية بعدوهم، وهو مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجد، او لمن رجع عن مقصده بالخيبة.

ومن الأمثال التي جاء بها الإمام □ كي يحث فيها اصحابه على القتال، قول العرب الشائع:

((قَلْبَ الْأَمْرِ ظَهْرُ الْبَطْنِ))^(١٨٠) و ((ضَرْبَ وَجْهِ الْأَمْرِ وَعَيْنُهُ))^(١٨١).

وكلاهما، يضرب في حسن التدبير، جاء الإمام □ بهما في خطبته الأولى، اذ اشار عليه اصحابه بالاستعداد للحرب بعد ارساله جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية، اذ قال:

"وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلْبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَلِي إِلَّا الْقِتَالَ أَوْ

^(١٧١) مجمع الأمثال: الميداني: ٢٣٠ / ٢.

^(١٧٢) نهج البلاغة: ٢٣٤ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٩٤ / ٧.

^(١٧٣) "قصير" صاحب جذيمة بن الأبرش كان قد نصح الاخير في امر الزباء فلم يقبل منه نصحه فهلك على يديها. مجمع الأمثال: الميداني: ٢٣٨ / ٢.

^(١٧٤) نهج البلاغة: ٨٥ / ١.

^(١٧٥) مجمع الأمثال: الميداني: ٢٩٥ / ١.

^(١٧٦) م.ن: ٣٤١ / ٢.

^(١٧٧) نهج البلاغة: ٧٤ / ١.

^(١٧٨) م.ن: ١١٧ / ١.

^(١٧٩) ظ: نهج البلاغة: ٧٤ / ١.

^(١٨٠) مجمع الأمثال: الميداني: ٩٢ / ٢.

^(١٨١) م.ن: ٤٢٠ / ١.

الكُفْرَ" (١٨٢)

ومن خطبته الثانية وفيها يصف اصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال اهل الشام، وفيها يحثهم على القتال ايضاً، قال:

"وَقَدْ قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ، فَمَا وَجَدْتَنِي يَسْعُنِي إِلَّا قَتَالُهُمْ
أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ نِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَكَأَنْتَ مُعَالِجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ
مُعَالِجَةِ الْعِقَابِ" (١٨٣)

((ضربت انف هذا الأمر وعينه... وقلبت ظهره وبطنه)) (١٨٤)، أراد الإمام □ في النصين، أنه تدبر هذا الأمر تدبراً ملياً، فكانت الاستعارة - المكنية - اقدر على تجسيد ما يريده الإمام.
لقد فكر الإمام في الأمر ملياً من جميع وجوهه حتى وصل إلى يقين تام، أنه لا بد من الحرب على الرغم من كراحتها، لأن عدم الحرب يعني الجحود بالاسلام، والقتال أيسر من مخالفة الدين، فهو يريد اقناع اصحابه من خلال استعماله لهذا المثل بصحة ما ذهب إليه في شأن القتال.
وفي معنى النقد والتعريض جاء الإمام □ ببعض الأمثال ليوردها ضمن خطبه -خطب الحرب- اذ قالت العرب:

((عَادَ الْأَمْرُ إِلَى نَصَابِهِ)) (١٨٥).

ورد هذا المثل ضمن احدى خطب الحرب وكانت في ذم الناكثين اذ قال □:
"إِلَّا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَرَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجَلَبَ جَلْبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ
الْبَاطِلُ إِلَى نَصَابِهِ" (١٨٦)

((يرجع الباطل إلى نصابه))، والنصاب هو الأصل، وهذا ما كان يعنيه الإمام □ وكان الباطل قد عاد إلى مركزه ومقره، وهو مع اعداء الامام، وجاء كلامه □ على سبيل الاستعارة المكنية، فقد بدا المعقول محسوساً.
مرة أخرى يأتي الإمام □ بأحد اقوال العرب الشائعة من كلام له في صفة خصومه من اصحاب الجمل:
((يَرْعَدُ وَيَبْرُقُ)) (١٨٧)

وهو مثل تقوله العرب اذا تهدد الرجل وتوعد خصمه وهذا ما ورد في خطبة الإمام □ السابقة الذكر، فقال:
"وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَسْلُ" (١٨٨)
((ارعدوا وابرقوا)) هذه صفة اصحاب الجمل الذين ارعدوا وابرقوا بلا مطر، أي ان فعلهم هذا لاشيء وراءه، وعلى هذا جاءت الاستعارة -التصريحية- موظفها الإمام □ حتى يوضح حالة العجز التي كان عليها اصحاب الجمل على الرغم من الوعيد والتهديد.

(١٨٢) نهج البلاغة: ٩٤ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٢٣ / ٢.

(١٨٣) نهج البلاغة: ١٠٣ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦ / ٤.

(١٨٤) المثلان يضربان في ((الاستقصاء والبحث والتأمل والفكر))، ظ: مجمع الأمثال: الميداني: ٩٢ / ٢، ٤٢٠ / ١.

(١٨٥) "المثل يضرب في الأمر الذي يتولاه اربابه"، مجمع الأمثال: الميداني: ٣٥ / ٢.

(١٨٦) نهج البلاغة: ٥٩ / ١.

(١٨٧) مجمع الأمثال: الميداني: ٤١٦ / ٢.

(١٨٨) نهج البلاغة: ٤٢ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٣٧ / ١.

ب - التلميح (*) :

لم يأت الإمام بالأمثال في خطبه إلا لأسباب أوجبتها، وربطها بالواقع والاحداث التي يمر بها الإمام واصحابه، ولأن □ في حال يتوجب عليه ان يأتي بكلام يمتاز بالايجاز والاختصار، وهذا ما عُرف عن الامثال، فقد بدت كالعلامة التي يعرف بها الشيء ^(١٨٩). فضلاً عن انها غنية بالمنطق والحجة والبرهان والاقيسة. لمح الإمام □ لبعض الأمثال دون أن يقصد إلى ذكره كمثل منها قول العرب: ((لَا يُكْذِبُ الرَّائِدُ أَهْلَهُ)) ^(١٩٠)

((الرائد)) هو الذي يتقدم القوم لينظر لهم الماء والكلأ. جاء الإمام □ ملمحاً إلى هذا المثل بقوله في احدى خطبه:

"فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ، فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّائِكُمْ وَأَحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَنْفِظُوا أَنْ هَتَفَ بِكُمْ، وَلَيَصْدُقَ رَائِدُ أَهْلِهِ، وَلَيَجْمَعَ شَمْلُهُ" ^(١٩١)
وهو مثل "يضرب فيما يخاف من غي الكذب" ^(١٩٢) والرائد هو من يأمر الهداة والدعاة الذين يتلقون عنه ويوصيهم بالصدق في النصيحة ^(١٩٣).

ثانياً :

الأمثال المبتكرة :

لقد تهيأت للإمام □ جميع الوسائل التي تعدّه لهذا المكان بين أهل البلاغة، فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو، فضلاً عن صفو مشاربه من أي الذكر الحكيم، والنبى □، اصف إلى ذلك استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة، فأجتمعت اسباب العبقرية لديه من الفطرة ومن البيئة جميعاً. خيال الإمام □ خيال العبقرى الذي يقوم على اساس من الواقع، فيحيط بهذا الواقع ويبرزه ويجليه. وقد اجتمعت في امثاله هذه ما لاتجتمع في غيره من الكلام. كما قال النظام، من ((ايجاز اللفظ، واصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة)) ^(١٩٤). من هذه الامثلة التي وردت في خطب الحرب، قوله □ من خطبته في ذم الناكثين، وجاء كلامه بصيغة العتاب والتفريع، اذ قال:

"مَنْ قَارَ بِكُمْ فَقَدْ قَارَ وَاللَّهِ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ" ^(١٩٥)

((السهم الأخيب)) وهو من الاسهم التي لاحظ لها، وقد عدّ كلام الإمام هذا، مثلاً يضرب في ((خيبة الرجل من مطلوبه)) ^(١٩٦) وهذا ما كان عليه حال سحب الإمام □ فلا صدق في اقوالهم ولارجاء في انتصارهم، ومن ثم فلا يمكن للإمام ان يوعد العدو بهم. مثل آخر ورد في كلام الإمام □ يحث فيه اصحابه على الجهاد قال:

(*) ((وهو من التضمين وانما بعضهم افردوه وهو ان يثير في فحوى كلامه إلى مثل سائد او بيت مشهور او قضية معروفة من غير ان يذكره)) ظ: حسن التوسل: ٢٤٢.

^(١٨٩) ظ: المثل السائر: ١/ ٥٤.

^(١٩٠) مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٢٣٣.

^(١٩١) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٨، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١٩٠.

^(١٩٢) مجمع الأمثال: الميداني: ٢/ ٢٣٣.

^(١٩٣) ظ: نهج البلاغة: ١/ ٢٠٩.

^(١٩٤) مجمع الأمثال: الميداني: ١/ ٦.

^(١٩٥) نهج البلاغة: ١/ ٧٤.

^(١٩٦) مجمع الأمثال: ٢/ ٣٠٨.

"لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ" (١٩٧)

جاء كلام الإمام □ كناية عن امرين الأول ((العزيمة)) كناية عن طلب الأمور العظيمة، و((الوليمة)) كناية عن الاسترخاء والرضا بالذائد وهما كناية عن صفة، فقد كان هذا المثل يضرب في عدم اجتماع امرين مختلفين في الاتجاه وهما ((طلب المعالي مع الركون إلى اللذائذ)) (١٩٨). والإمام يحث أصحابه على القتال فالكرامة لا تجتمع مع حب الحياة، فلا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل حريتهم بثغر باسم.

مثل آخر من خطبته في أصحابه وأصحاب رسول الله □، اذ قال:

"وَكُنْ أَمْهَلَ الظَّالِمِ فَلَئِنْ يُفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمَرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغِ رَيْقِهِ" (١٩٩)

((بموضع الشجى من مساع ريقه)) كناية عن قرب الله تعالى من الظالم وتمكنه منه حيث شاء، ف((الشجى)) ما

يعترض الحلق من عظم و ((مساع ريقه)) ما يسهل مدخله في الحلق، والكلام تمثيل لقرب الله تعالى من الظالمين. مثل آخر ورد على لسان المولدين سبقهم إلى ذلك الإمام □ اذ قال من خطبة عند خروجه لقتال اهل البصرة، قال:

"وَأَيْمُ اللَّهِ لَأُبْقِرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ" (٢٠٠)

قد عدّ هذا الكلام، مثلاً، أخذ يضرب لمن يفرق بين الحق والباطل، والإمام □ قد جاء بالطف استعارة تمثيلية، فكانه ((جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه ومحيطاً به، فاذا بقر ظهر الحق الكامن فيه)) (٢٠١).

قول آخر للإمام لم يسبق إليه أحد، اذ قال من خطبة له □ حين ورد غزو الأنبار بجيش معاوية فلم ينهضوا، وفيها يذكر فضل الجهاد، ويستنهض الناس، ويذكر علمه بالحرب ويلقي عليهم التبعة لعدم طاعته، اذ قال:

"لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي، لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ دَرَقْتُ عَلَى السِّنِّينَ، وَلَكِنْ، لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ" (٢٠٢)

((لا رأي لمن لا يطاع)) (٢٠٣) قاله أمير المؤمنين معاتباً أصحابه وعدّ مثلاً يضرب لمن لا يطاع ومن ثم لا رأي

له.

مجمل القول، ان الإمام □ كان ذا ثقافة واسعة، ومديدة، واخذ يولد الافكار من الافكار، وكان البلاغة لديه ينبوع يجري لا انقطاع له، ومن ثم جاءت الأمثال في خطب الحرب بكل انواعها من تضمين وتلميح، وحتى المبتكرة، كانت مضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم.

(١٩٧) نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٤، ط: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ٧١.

(١٩٨) م.ن: ٢/ ٢٣٤.

(١٩٩) نهج البلاغة: ١: ١٨٧، ط: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ٧١.

(٢٠٠) م.ن: ١/ ٢٠٠، ط: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١١٦.

(٢٠١) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١١٦.

(٢٠٢) نهج البلاغة: ١/ ٧٠.

(٢٠٣) مجمع الأمثال: ٢/ ٢٤١.

الفصل الثاني

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه:

من الفنون التي كثر استعمالها عند العرب، فقد جرى في كلامهم، وتناولته أشعارهم، وبنيت عليه خطبهم، كما يُعدّ "من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها" (204) فضلاً عن تأثيره النفسي والعقلي وقد عني بدراسة أثره في صناعة الأدب كثير من العلماء والمتكلمين وعلماء البلاغة (205). كما عُدّ مقياساً لشاعرية الشاعر عند كثير من النقاد العرب (206).

فالتشبيه: عملية مقارنة ومماثلة بين طرفين مشبه ومشبه به لصفة تجمع بينهما، والتعريفات كلها لاتخرج عن هذا المضمون، وهو ما اتفق عليه كثير من العلماء (207).

وقد أصبح التشبيه فلسفة فنية لها قواعدها وأصولها عند عبد القاهر الجرجاني، لما انطوى عليه من قدرة على الخلق والتصوير "فيكون سبيله سبيل الشينيين يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الافراد، لا سبيل الشينيين يجمع بينهما وتحفظ صورتها" (208).

وعلى هذا فالتشبيه "محاولة بلاغية جادة لصقل الشكل وتطوير اللفظ، ومهمته تقريب المعنى إلى الذهن بتجسيده حياً، ومن ثم فهو ينقل اللفظ من صورة إلى صورة أخرى على النحو الذي يريده المصور" (209).

وقد كان هدف الامام □ الاسمى هو التأثير النفسي الذي قد يحدثه في تشبيهاته بانواعها المختلفة، من احياء ودلالة داخل نفوس اصحابه ممن هم مؤلفون معه ومختلفون عنه، فجاءت تشبيهاته "شديدة الانتلاف فيما بين اطرافها على الرغم من تباعد اجناسها بسبب ما اضيف وركب والف حتى توافقت فيما بينها، فاذا بها خلقت من ذلك الصهر والتركيب معاني ثرة لم يقع بالحسيان التلفت اليها لاعتیاد الناس عليها وشدة الفتهم لها" (210).

ويقوم التشبيه على أساس أطرافه الأربعة المشبه والمشبه به ووجه الشبه وأداة التشبيه، وقد يحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فيسمى التشبيه في مثل هذه الحال "تشبيهاً بليغاً" ويعد هذا من أرقى أنواع التشبيه لدلالته على نفسه بنفسه ولأنه يحدث تلاحماً بين المشبه به وكأنهما شيئاً واحداً.

وقد جاء التشبيه البليغ، في مقدمة أنواع التشبيه التي وردت في خطب الحرب للامام □ اذ ندرك أن هناك حالة اندماج بين المشبه والمشبه به بعد حذف أداة التشبيه ووجه الشبه. وقد عدّه القزويني: "الشيء اذا نيل بعد الطلب له والاشتياق اليه، كان نبيله أحلى، وموقعه في النفس الطف" (211). يقول الامام □ في احدى خطبه حين وردّه خبر غزو الانبار، فلم ينهض اصحابه، وفيها يذكر فضل الجهاد، قال:

"فإنَّ الجهادَ بابٌ منْ أبوابِ الجنَّةِ فتحَهُ اللهُ لِخاصَّةِ أوليائِهِ وهوَ لباسُ التَّقوى..." (212)

يسخر الامام □ التشبيه البليغ لايضاح الصورة مستفيداً من شرط بلاغة التشبيه وهو "أن يشبه الشيء بما هو

(204) الاتقان في علوم القرآن: ٣/ ١٤١.

(205) ظ: الكامل: ٩٣/٣، البديع: ١٢١، عيار الشعر: ٨٩، ٢٣، ١٧، نقد الشعر: ١٢٢، العمدة

١: ٢٨٦، اسرار البلاغة: ٩٠، مفتاح العلوم: ٣٣٢، المثل السائر: ٢/ ١١٢، الايضاح:

٢١٣/٢.

(206) ظ: طبقات فحول الشعراء ، حيث قال ابن سلام عن امرئ القيس: "كان أحسن طبقتة

تشبيهاً" ٥٥/١.

(207) ظ: الحيوان: ٣٧٣/٤، النكت في اعجاز القرآن: ٧٤، كتاب الصناعتين: ٢٤٥.

(208) اسرار البلاغة: ٩٠.

(209) اصول البيان العربي: ٦٣.

(210) التصوير الفني في خطب الامام □ :رسالة ماجستير: ٤٧.

(211) الايضاح: ٢٥٩/٢.

(212) نهج البلاغة: ٦٧/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧٧/٢.

أكبر منه وأعظم" (213) فجاء فضل الجهاد مشابهاً لتقوى الله في الجزاء والثواب، ولما كانت التقوى أسمى مراتب العبودية فيكون الجهاد أسمى أعمال الإنسان التي يصل بها إلى هذه المرتبة، فالجهاد يصل بالمجاهد إلى الجنة من باب خاص فتحه الله تعالى للمجاهدين دون غيرهم، تمييزاً لهم من عباده الصالحين الآخرين، فتكاد تكون الصورة في قوله المذكور موازية للفكرة في وضوحها، وإن كانت تفوقها بئاً وإيحاء.

ومرة أخرى نجد الامام □ يوظف التشبيه البليغ للأحياء بصورة جديدة في ذم المتقاعسين عن القتال، عند علمه بغزوة النعمان بن بشير لعين التمر، قال:

"دَعَوْكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرَّجَرْتُمْ جَرَجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسْرِّ وَتَنَاقَلْتُمْ تَنَاقُلَ النَّضْوِ الْأَدْبَرِ" (214)

شبه الامام □ بعض اصحابه في تردد صوتهم وحيرتهم لما دعاهم بجرجرة الجمل المصاب بالاعياء والتعب وتناقلوا عن النهوض إلى جهاد خصومهم تناقل النضو الأدبر وتناقل الهزيل منها والتي اصببت في دبرها فلا تستطيع النهوض، والمعنى الجامع في ذلك كله هو العجز والضعف والخذلان، نرى الامام □ "يتجاوز التشبيه الواحد في العبارة الواحدة إلى تشبيهات متعددة تصور بها براعة التشبيه، ودقة المعنى" (215).

وغالباً ما نلمح الامام □ يصوغ التشبيه مصدرياً، وهو ما عدّه العلماء من محاسن التشبيه (216)، كما يعتمد □ إلى تشبيه به حركة (217)، وغرضه من كل ذلك؛ هو بيان مقدار حال المشبه من قوة وضعف وزيادة ونقصان (218). فعندما تضم إلى بعضها لبعض الآخر تبدو محسوسة وذات قوة وصفية متميزة، وهنا تكمن القدرة الابداعية للتشبيه في ادراك الصورة.

وقد كثر استعمال الامام □ للتشبيه البليغ (219)، في صياغة صورة ذات ايحاء وتأثير في نفوس سامعيه. ويعتمد الامام □ التشبيه التمثيلي (220)، في خطبه اذ تمكن من نسبة الشبه المركب من حاله مع غيره فأصبح مجموع الكلام مثلاً (221)، وقيل عنه أنه أدق تصوير وأعظم تأثير (222). يقول □ معاتباً بعض أصحابه بعد ليلة الهرير (*):

"أَيُّنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْقِتَالِ فَوَلَّوْهُا وَلَكَّهَ اللَّقَاحُ إِلَى أَوْلَادِهَا" (223).

الصورة هنا غزيرة المعنى شديدة الإيحاء بالفاظها، واللقاح: هي الناقة الحلوب (224). تبدو وكأن هناك مشاركة بين حال المسلمين وحبه الشديد للقتال- من أجل الدين والعقيدة- كحال الناقة الحلوب وحبها لأولادها. وهي تسقيهم وترويه من درها ولبنها، فالمشاركة هنا بين الطرفين كانت في المعنى (225) فالامام يتحسّر على أولئك الذين حملوا الدين ودافعوا عنه، وكأنه مأخذ على اصحابه انهم لم يصلوا في ايمانهم ومن ثم في جهاد عدوهم إلى ما وصل إليه

(٢١٣) المثل السائر: ١٢٤/٢.

(٢١٤) نهج البلاغة: ٩٠/١ ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٠١/٢.

(٢١٥) اصول البيان العربي: ٦٥.

(٢١٦) ظ: المثل السائر: ١٢٣/٢.

(٢١٧) ظ: كتاب الصنائع: ٢٥١.

(٢١٨) ظ: الايضاح: ٢٣٧/٢.

(٢١٩) ظ: نهج البلاغة: ٢٣٢/١، ١٠٧، ١٠٥، ١٠٠، ٨٣، ٨٢، ٦٩: ٢٩/٢، ٢١، ٢.

(٢٢٠) "انتزاع وجه الشبه من أمور متعددة". اصول البيان العربي: ٧٤.

(٢٢١) ظ: اسرار البلاغة: ٢٣٩.

(٢٢٢) ظ: م. ن: ٨٣.

(*) وهي إحدى ليالي معركة صفين، وكان القتال فيها شديداً جداً، ظ: وقعة صفين: ٤٨٠/٧، ٤٧٩.

(٢٢٣) نهج البلاغة: ٢٣٤/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٩٥/٧، ٢٩٤.

(٢٢٤) ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٩٥/٧.

(٢٢٥) ظ: الايضاح: ٢١٣/٢.

أولئك المسلمون الأوائل. ولو كانوا كذلك لما طالت عليهم الحرب، ولأنتهى الأمر إلى النصر الأكيد في زمن ليس بالطويل. ومن ثم فالتشبيه جاء لـ "يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً" (226).

ويرى بعض الباحثين أن تشبيه التمثيل "أبلغ من غيره، لما في وجهه من التفصيل الذي يحتاج إلى إمعان فكر، وتدقيق نظر، وهو أعظم أثراً في المعاني، فيرفع قدرها، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها، فإن كان مدحاً كان أوقع، أو ذمّاً كان أوجع أو برهاناً كان أسطع ومن ثم يحتاج إلى كد الذهن في فهمه لاستخراج الصورة المنتزعة من أمور متعددة، حسية كانت أو غير حسية لتكون وجه الشبه" (227)، فكلما ازدادت الصورة في تفصيلاتها زادت الحاجة إلى التوقف والتذكر، وهذا ما وجدنا عليه كل تشبيهات الإمام □ ومن هنا نطل على قول آخر للأمام يصف بعض أصحابه بعد تركهم القتال والنصر يكاد يتحقق فيقول:

"فإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ، حَمَلْتَ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ وَمَاتَ قِيَمُهَا وَطَالَ تَأْيِمُهَا وَوَرَثَهَا أَبْعَدُهَا" (228)

وقد أخرج الامام □ المعنى المراد بالحس والمشاهدة "وهذه فائدة التمثيل في جميع العلوم لأن المثل لا بد من أن يكون أظهر من الممثل، فالغرض بايراده، ايضاح المعنى وبيانه" (229) فالصورة التفصيلية لم يضعها الامام □ إلا ليتحدث عن مشاعره، فـ "تعقيب المعاني به- التشبيه ولاسيما قسم التمثيل منه- يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها، مدحاً كان أو ذمّاً أو افتخاراً.." (230).

وهذا ما نلاحظه من تركيز الامام □ على اعتراضه على التحكيم بهذا القول، فبعد أن تبينت علامات النصر لجيشه، اثروا التحكيم ففرطوا بالنصر الذي لاح لهم، فكانوا بهذا يشبهون بحال المرأة الحامل التي أتمت حملها ثم أملصت، ثم يجمع عليها هموماً أخرى تتمثل بموت قيمها وطول تأيمها ثم وراثة الابدع لها، وكأنه □ يرسم صورة لما آل إليه مصير التحكيم فيما بعد كان □ يؤكد على "معان ذاتية عاشها و تفاعل معها أو تصورها ويريد من

(٢٢٦) كتاب الصناعتين: ٢٤٩.

(٢٢٧) جواهر البلاغة: ٢٦٥.

(٢٢٨) نهج البلاغة: ١١٨/١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٢٧/٦.

(٢٢٩) سر الفصاحة: ٩٧.

(٢٣٠) الايضاح: ٢١٤/٢.

ثمَّ نقلها إلى الآخرين وعرضها من خلال الالفاظ التي هي في الحقيقة معارض للمعاني وآوان لها" (231).

وفي قول آخر له □ في بعض أصحابه معائباً:

" يَا أَشْبَاهَ الْإِبْلِ غَابَ عَنْهَا رُعَايَتُهَا كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ " (232)

تشير الصورة إلى الأبل التي غاب عنها رعاتها فلا يمكن جمعها فاذا ما جمعت من جانب ذهبت إلى جانب آخر، ويعد كلامه هنا من أفضل أنواع التشبيه لانه وقع بين طرفين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما، (233) بحيث يدنى بهما إلى حال الاتحاد، بين حال سحب الامام □ وحال الإبل... وهكذا فالتشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة، وأخرى بالحال والطريقة.

إن أساس الأسلوب التمثيلي عند الامام □ (234)، قائم على عنصري التشخيص والإبداع ونجد أنه "قائم في الأساس على الإيحاء للمتلقى، ان المشبه وهو في الغالب معنى ذهني مجرد، متمثل متجسد في المشبه به الذي هو في الغالب موجود حسي" (235)

مظهر آخر استعمله الامام □ هو قلب التشبيه، وأكثر ما يؤدي هذا التشبيه هو المبالغة في الصفة " فيكون في الغالب إيهام أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه.. وهذا يسمى اظهار المطلوب" (236) وهذا ما نجده □ في استنفاره الناس إلى أهل الشام إذ قال:

" لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ سَعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ " (237)

إذا عدوا وهم وقود نار الحرب وقد اقتضى المقام ان يتأخر المشبه ويتقدم المشبه به، فكان التقدير "لبئس أنتم نار الحرب" ويقصد فيها أنهم ليسوا من أبناء الحرب ولا بأكفائها، وقصد هذا النوع من التشبيه لغرض المبالغة (238) ومن فضائل التشبيه عند الامام □ أنه كان " يأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة " (239) فنجد الأبل وهي الأكثر استعمالاً عند الامام □ ولا شك في ذلك لما كانت تحظى به من رعاية العرب واهتمامهم منذ عصر ما قبل الاسلام وبقيت على ما هي عليه في صدر الاسلام. إذ وصف بعض اصحابه بصفين، قال:

" فَتَذَاكُوا عَلَيَّ تَذَاكَ الْإِبْلِ الْهَيْمِ يَوْمَ وَرْدِهَا " (240)

استطاع الامام □ هنا خلق صورة جديدة بين هذه المفردات، إذ شبه حال الناس- وهم يفدون عليه لمبايعته بأمر الخلافة رغبة منهم – بحال الإبل العطاش التي تقصد الورد للأستسقاء، والعرب تضرب الامثال بالابل العطاش

(231) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٨٤.

(232) نهج البلاغة: ١ / ١٨٩ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧ / ٧٦.

(233) ظ: نقد الشعر: ١٢٢ ، العمدة : ١ / ٢٥٩.

(234) ظ: نهج البلاغة : ١ / ٢٣٤، ١٩٠، ١٨٨، ٨٨، ٦٥.

(235) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : ٢٠٢.

(236) الايضاح : ٢ / ٢٤٠، ٢٤١.

(237) نهج البلاغة : ١ / ٨٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد : ٢ / ١٩١ .

(238) ظ: المثل السائر : ١ / ٤٢١ .

(239) الايضاح : ٢ / ٢١٧.

(240) نهج البلاغة : ١ / ١٠٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٤ / ٦.

وتخصها دون غيرها من الحيوانات لأنها "إذا انست مواردها وشارفت مشاربها صرد شرب بعضها وخلي عن الورد بعضها وغادر الزحام صواديها تحوم ولوايها تلوب ولات حين ورود" (241).

الصورة هنا شديدة الإيحاء بالفاظها زادها التشبيه (البليغ والتمثيلي) إيحاء وتفصيلاً، فاطلاق راعيها بعد خلعه عنها ما يقيدها من الحبال جاءت مسرعة مثلهمة إلى الماء فليس وراءها ما يبطئ سيرها، فالصورة هنا دائبة بالحركة والاستثارة وهدفه تقريب الأشياء وإبراز الحقائق، واستخلاص العظات والبيانات.

ومرة أخرى يوظف الامام □ التشبيه البليغ مع التمثيلي في تصوير تخاذل بعض أصحابه فيقول:

"وَقَدْ انْفَرَجْتُ عَنْ أَبْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْفَرَجَ الْمَرْأَةُ عَنْ قُبُلِهَا" (242)

إذا صورهم في تقاعسهم عن نصرته بقُبل المرأة في حال الولادة، فالمرأة لاتنفرج عن قبلها أبداً إلا في هذه الحالة. فهي مضطرة إلى ذلك لتحقيق ما هو أسمى، وهو الولادة. أما هم فانفروا عنه لا ليأتي مولود جديد بل خذلان وتقاعس، وكأنه يريد أن هذا الخذلان هو كشف للعودة دون مسوغ. ندرك أن الباعث النفسي خير ما يعين الامام □ على الابداع فجاءت تشبيهاته منسجمة مع حالته الشعورية لما في ظاهرها من دلالة على الحزن، فقد دأب على تضمين العبارة أقل ما يمكن من الالفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني.

وقد أتاح □ بتشبيهاته تلك فرصة أكبر للمتلقى لاكتشاف المزيد من الصفات المشتركة، فعمد إلى حالة الانفراج لما فيها من معانٍ متعددة قصد فيها أجود أنواع التشبيه وأبلغها وهو "أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة" (243).

ومن محاسن التشبيه لدى الامام □ أن جاء مصديراً، ولهذا قال الامام (انفرتم- انفراج) فقد خلق صورة مقابلة ذات تركيب حسي امتدت المشبه بدلالات جديدة، واسبغت عليه مزيداً من الإيحاء والوضوح.

ندرك "أن الصورة في تشبيهات الامام غالباً ما تبني على مجموعة أجزاء يُركب بعضها من بعض في مشهد تمثيلي تتوحد فيها الأجزاء وتتجمع الأشئآت، لأن أكثر المعاني المراد تصويرها عقلية لا يتأتى للتشبيه المفرد المستغني عن التفصيل عرض صورها بتلك الغاية من الدقة" (244) وعلى هذا يمكن القول في التمثيل عند الامام □ أنه "كل صورة حسية يبتكرها ذهن أو يتخيلها للمعاني الذهنية المجردة، أو هو كل ما يتمثله أو يتخيله ذهن من صورة حسية يراها أهلاً لأن تتجسد بها المعاني الذهنية المجردة، وتكون وصفاً حسياً صادقاً لها" (245) إذ يعتمد الامام □ إلى التصوير عند التقرير ويعمد إلى التمثيل عند السرد والعرض.

ولكثر ما تثيره الأبل في فكر العرب من صور، فهم أهل بادية يهتمون بالانعام من خلال ملاحظ عديدة، نجد الامام □ يستدعي هذا الاهتمام ويمزج به عناصر الاداء البياني، ويقوم ذلك لديه على أساس ايجاد التأليف السوي بين الشئئين "حتى يكون انتلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس" (246). فكان الوصف حسياً يتناول مظاهر الاشياء ثابتة ومتحركة وفي الوقت ذاته يتناول النواحي المعنوية كالفضائل النفسية والالام المبرحة.

يقول الامام □ معنفاً أصحابه بصيغة العتاب والتقريع:

"وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ وَلَا زَوَافِرٍ عَزَّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَابِلٍ ضَلَّ رُعَاتِهَا" (247)

شبه بعض أصحابه بالابل الضالة مع رعاتها والصورة هذه رسم معنى ذهني هو التفرق والتشتت؛ بسبب عدم الاتفاق على كلمة أو مبدأ ورأي، وتمضي الصورة في التفصيل فتأتي نتيجة ضلال الرعاة بالابل وهي "كناية عن اختلاف كلمتهم وشتات أمرهم" (248) فكلما جمعت من جانب انتشرت من جانب آخر وهكذا.

وفي مشهد آخر لصورة الأبل يصف بعض أصحابه في بعض ايام صفين، قال:

"وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ وَتَزِيلُونَهُمْ عَنْ

(241) الجمان في تشبيهات القرآن: ٣٢٩.

(242) نهج البلاغة: ١ / ١٨٩ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧ / ٧٦.

(243) كتاب الصناعتين: ٢٤٦.

(244) التصوير الفني في خطب الامام □ رسالة ماجستير: ٥٨.

(245) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربي: ٢٠٢.

(246) اسرار البلاغة: ١٣٩.

(247) نهج البلاغة: ١ / ٨٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٢ / ١٩٠ .

(248) في ضلال نهج البلاغة: ١ / ٢٢٦.

مَوَاقِفُهُمْ كَمَا أَزَالُوهُمْ حَسًّا بِالنَّصَالِ وَشَجْرًا بِالرَّمَاكِ ، تَرْكَبُ أَوْلَاهُمْ أَخْرَاهُمْ ، كَالْإِبِلِ
الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ تُرْمَى عَنْ حَيَاضِهَا ، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا" (249)

رسم الإمام □ صورة شجاعة أصحابه في صفين وكيف أدخلوا الرعب في صدور أعدائهم، فأصبح حالهم "كالإبل العطاش التي اجتمعت على الحياض لتشرب ثم طردت ورميت عنها بالسهم وذيدت عما وردته، فإن طردها على الاجتماع يوجب لها أن يركب بعضها بعضاً ويقع بعضها على بعض" (250) وكنى عن ذلك بقوله "تركب أولاهم أخراهم"، فصورته هذه ذات بعدٍ إيحائي لصورة المشبه. هذا حال أهل الشام وليس أصحاب الإمام. فالإبل حينما تأتي الماء تجتمع على مكان واحد. وحينما تطرد تتفرق إلى الاتجاهات كلها فيركب بعضها بعضاً. نرى مشهداً آخر للتشبيه البليغ ممزوجاً بالكناية والإمام □ يعرض لنا حقائق ممزوجة بالالم والحسرة والعتاب، فيلقي التبعة على بعض أصحابه لعدم طاعته فقال عنهم:

"يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالًا ، حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ" (251)

شبه الإمام □ أفراداً من جيشه ممن يكتفون من الحياة بالعيش الذليل، يهابون الأمر اليسير، كالأطفال في احلامهم الثقافية، وكالنساء في العقلية، وهذا يعني تأكيده على أنهم ليسوا برجال فهم كالأطفال في الأولاع، وكالنساء في التفكير، وإذا كانوا كذلك فهم أشباه الرجال ولا رجال، وتبدو صفات التشبيه جلية في قول الإمام □ تعتمد المجاز والتشبيه، وإلى جانب ما ذكره من تشبيه نجد الكناية (252)، في قوله "ربات الحجال" لا شك أن الإمام □ خصَّ ضرباً معيناً من النساء "ربات الحجال" أي ذوات الزينة اللاتي لا يبدن اهتماماً إلا لزينتهن، فيكون تفكيرهن محصوراً في هذا الجانب أي أنه لا يعني جميع النساء. وإلا لما اختار هذا الوصف دون غيره. ومن ثم فالنص يكشف لنا عن عمق الم الإمام □ من مواقف أصحابه في عدم طاعته بقوله □ من الخطبة نفسها:

"أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ... فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ تَوْبَ الدُّلِّ وَشَمْلَةَ الْبَلَاءِ" (253)

لقد تضافرت ثلاثة من عناصر البيان لابرار صورة فنية ذات قوة وصفية، نجد التشبيه في قوله □ "توب الذل" فقد جعل الذل كالثوب على سبيل اضافة المشبه به إلى المشبه والمعنى شمله الذل، ومن ثم نرى استعارة في قوله "البسة" أي أذله لما يشتمل عليه الذليل من المهانة على سبيل الاستعارة التصريحية التخيلية (254). لما ذكر الإمام □ أجر الجهاد في بداية خطبته فمن يتركه بعد ذلك فهو قد لبس ثوب الذل، كما نجد إلى جانبي التشبيه والاستعارة، الكناية، فقد كان التركيب كله كناية عن المذلة والهوان، وكان الإمام □ كان يعتمد إلى "التفنن بأبراز الصورة الفنية للشكل، وأستقرأ دلالاتها الحسية، وذلك عن طريق تسخير قدرة التشبيه الخارقة في تلوين الشكل بظلال مبتكرة، وأزياء متنوعة، لم تقع بحس قبل التشبيه، ولم تجر بها العادة، ولا تعرف بداهة، إلا بلحاظ مجموعة العلاقات الفنية في التشبيه، وعند ضم بعضها للبعض الآخر تبدو محسوسة متعارفة ذات قوة وصفية، ومن هنا ندرك القدرة الإبداعية للتشبيه في تكيف الصورة" (255)

الإمام □ يعبر في أفكاره عن حالة نفسية صادقة، وأحاساس وجداني ينفذ من خلالهما إلى نفوس سامعيه وتصبح الحالة التي يعانونها قابلة للأصلاح وإذا شئت فأنظر إلى الإمام يعرض إلى التراحم والتراكم عليه عند البيعة، فيقول:

(٢٤٩) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٦، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٧ / ١٨٠.

(٢٥٠) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٣ / ٣٨.

(٢٥١) نهج البلاغة: ١/ ٧٠، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٢ / ٧٧.

(٢٥٢) ظ: م.ن: ١/ ١٠٧، ١٨٨، ٨٥ / ٢.

(٢٥٣) ظ: م.ن: ١/ ٦٧.

(٢٥٤) "هي أن يستعار لفظاً دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم ثم تردف بذكر المستعار

له ايضاحاً لها وتعريفاً لحالها". معجم المصطلحات البلاغية: ١ / ١٥١.

(٢٥٥) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٦٨.

"فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ" (256)

"تجد التفاصيل مغمورة فيما بينها وتراها لا تحضر إلا بعد أعمال الروية واستعانة بالتذكر، ويتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل" (257) فقد شبه □ اقبالهم عليه طالبيين للبيعة بإقبال مستنات النوق على أطفالها.. "خص المستنات لأنها أقوى حجة على أولادها" (258) ليبين شدة اقبالهم لبيعتهم، وهناك ما يؤكد شدة ذلك الاقبال وهو حذف أداة التشبيه، وذلك للمبالغة في اقتراب طرفي التشبيه من بعضهما. (259) نلاحظ صوراً مختلفة لحال الابل التي عبر عنها الإمام □ في هذا الفن - التشبيه - فتارة يجعل من الابل صورة للمتقاعسين بقوله "ما أنتم إلا كأبل ضل رعاتها" وتارة يوظف صورة حسنة لها فيجعل حال المسلمين في حبيهم للقتال من أجل الدين والعقيدة كـ "وله اللقاح إلى أولادها" وفي كل الاحوال فد "التفاعل بين طرفي الصورة التشبيهية وملاءمتها لحال الخطاب من أهم عناصرها الفنية، وأغراضها النفسية" (260) لما لها من قدرة على التأثير والتأثر.

وللتشبيه المجل (261)، نصيب من خطب الحرب للإمام علي □ ففي قوله لأصحابه بصيغة النقد والتعريض: "اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشْهُودَ كُغْيَابٍ وَعَيْدُ كَارِبَابٍ؟" (262)

الإمام □ يتجه إلى استعراض ترغيب قومه بالجهاد واستنفارهم لهم، فلم ينفروا نتيجة التخاذل، ولم يسمعوا منه جراء التواكل، وكان دعاؤه لذلك دعاء نوح □ سرّاً وجهراً فما كانت هناك استجابة، ونصح لهم فما وجد للنصح سبيلاً، فلم يقبلوا ذلك، واستنكر عليهم هذه الحالة الشاذة، فهم حاضرون بأبدانهم غائبون بأرواحهم، ليسوا بأحرار في دنياهم، يتصنعون الكبرياء والجبروت عبيد كارباب فهم عبيد لأهوائهم ولكنهم يشبهون الارباب فيما يتظاهرون به.

وفي ذلك كله بيان لحالهم ووصف لدخائلهم المزدوجة وقد كان يريد "أن أخلاقهم كأخلاق العبيد؛ من الغدر والخلاف ودناءة الأنفس؛ وفيهم مع ذلك كبر السادات والارباب وتبهم فقد جمعوا خصال السوء كلها" (263) وفيه لم يذكر □ وصف المشبه ولا وصف المشبه به، نتيجة التناسب بين الطرفين.

كما نجد التشبيه المفصل (264)، قد وظفه الإمام □ في حث أصحابه على القتال في ساحة الحرب، قال: "الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرُدُّ الْمَاءَ" (265).

ما عرف عن التشبيه المفصل هو ما ذكر فيه وجه الشبه، ولكن قد يتسامح بذكر ما يتبعه مكانه ... ولا مما تبعد دلالتها على معانيها (266)، وهذا ما أدركناه في الصورة أعلاه، فقد شبه القادم إلى الله سبحانه وتعالى فنال نعيمه أثر استشهاد بالظمان الذي يرد الماء، والمعنى الجامع بين الطرفين؛ هو بلوغ المراد واطمئنان النفس به. وتتميز تشبيهات الإمام □ بقوة العاطفة، التي تؤثر في عباراته تأثيراً واضحاً ويبدو ذلك في الكلمات والصور والتركييب فضلاً عن ورود الحقيقة؛ لأنها كانت تسند العاطفة وتبعث فيها القوة، ولما كان □ يمثل الشيء بالشيء فانما يقصد به اثبات الخيال ففي النفس بصورة المشبه به؛

(256) نهج البلاغة: ٢ / ٢٠ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٨ / ٩.

(257) أسرار البلاغة: ١٤٧.

(258) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣ / ١٦٧.

(259) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ١٩١.

(260) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ١٦٥.

(261) "هو التشبيه الذي لم يذكر فيه وجه الشبه" معجم المصطلحات البلاغية: ٢ / ١٩٩.

(262) نهج البلاغة: ١: ١٨٨ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ٧٤.

(263) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ٧٤.

(264) "هو التشبيه الذي يذكر فيه وجه الشبه". معجم المصطلحات البلاغية: ٢ / ٢١٣.

(265) نهج البلاغة: ٢ / ٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٨ / ٦.

(266) ظ: الايضاح: ٢ / ٢٥١، ٢٥٢.

أو بمعناه، فعندما يدعو إلى الترغيب ينتقي صورة المشبه أحسن من صورة المشبه به، فذلك مثبت في النفس خيالاً حسناً والعكس صحيح في التنفير⁽²⁶⁷⁾.

لقد أصاب الإمام □ وأحسن في جميع صورته التي انتقاها من فكره إذ كان يمثل حقائق الأشياء، وطبيعة الموصوفات، بأوجه شبه مناسبة، بما يحقق الجانب البلاغي في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذا يؤدي إلى إيضاح المعنى وبيان المراد، وكان "يمثل الشيء بما هو أعظم منه في الاتصاف بالصفة أو أحسن فيه في الصورة أو المعنى، فيأتي الحسن حينئذ من ناحية الغلو والمبالغة... وتحقق تلك المبالغة فوق تأكيد المعنى غرضين مهمين، هما تزيين المشبه عند ارادة هذا التزيين وتقبيحه عند الرغبة في تهجينه"⁽²⁶⁸⁾.

الإمام □ ابتكر صوراً أصلية، مزجت بالمشاعر والاحاسيس واتحاد الفكرة مع الشكل، إذ ربط ذلك التشابه الحسي بجوهر الشعور والفكرة في الموقف⁽²⁶⁹⁾. وكل المعاني التي أرادها □ التعبير عنها أو التشبيه بها – حسية كانت أو مجردة – جاءت صادقة وقد عكست ابعاده النفسية ومشاعره، ومن ثم كانت غاية في الابداع والتصوير، وكل ما عبر عنه كان ذا قدرة على الإيحاء، وكان يصل فيها إلى جواهر الأشياء، إذ كانت الأفكار والمضامين واضحة وبارزة على الرغم من الظروف العصبية التي كان يذكر فيها الإمام □ خطبه.

(^{٢٦٧}) ظ: المثل السائر: ١٢٣ / ٢.

(^{٢٦٨}) علم البيان: ١٠٤.

(^{٢٦٩}) ظ: النقد الادبي الحديث: ٤٤٥.

المبحث الثاني

المجاز

المجاز:

هو الركن الاساسي في أصول البيان العربي بوصفه فناً أصيلاً يوحى

بأعطاء الالفاظ طائفة من المعاني الثانوية التي ينهض بها اللفظ من خلال

معنى المعنى.

والمجاز شائع في استعمال العرب، وقد استطاع المناخ العربي ان يسخر هذه الوسيلة الجديدة "المجاز" في تصوير افكاره، وتمثيل احساسه، فكان بذلك قد مهد القول بتفجير الطاقات للنصوص باعطائها جملة من المعاني الاضافية. لذا عد "دليل الفصاحة ورأس البلاغة" (270)

وقد نال المجاز من اهتمام العلماء وعنايتهم مالم ينله مبحث آخر وقد أهتم به علماء البلاغة، واللغة على السواء (271). وتناولوه في كتبهم بالشرح والتفصيل والتمثيل، وهم يكادون يلتقون حول مفهوم عام للفظ المجاز وهو استعمال الكلام في غير ما وضع له او الكلمات المستعملة فيما لم توضع بازائه، وقد كان الجرجاني هو السباق لهذا الفن - المجاز - في تحديد مفهومه واقسامه اذ قال: "أما المجاز فكل كلمة اريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والاول فهي مجاز" (272).

نجد المجاز في طبيعة الانسان الذي يود أن يعبر عن مكونات نفسه فيستخدم الالفاظ التي تبرز ما انطبع في نفسه من مشاعر وأحاسيس و"لان البلاغة تقوم في أصل معناها على ارادة المتكلم ابصال معنى من المعاني أو فكرة من الافكار إلى الشخص المقصود بالكلام، حسب كيفيات معينة تتحدد بنوع العلاقة القائمة بين الدال والمدلول" (273).

وقد يفترن الاستعمال الحقيقي بالتعبير المجازي لتأكيد حقيقة كبرى، فهو يفجر روافد بلاغية جديدة ذات اطار في محاكاة غير المحسوس للمحسوس، ومماثلة الادراك في غير المدرك، لانها تنتقل الصورة إلى داخل النفوس بما تضفيه المجازات في الخطب من ابعاد جديدة (274)، نرى الإمام □ يسند الاحساس إلى الجماد، فيصفه بالفاعلية لتتوجه النفس اليه ويحصر الحدث به وكأنه فاعله، فقد استطاع □ عن طريق المجاز تكيف النصوص في خطبه نحو المعنى المراد، دون توقف لغوي أو معارضة من دلالة اللفظ المركزية، وذلك حسب ما أراده □ من اشارة النفس او الهاب العاطفة أو اذكاء الشعور في حالتي الترغيب والتنفير (275). وقد ورد المجاز في خطب الإمام □ بضربيه العقلي واللغوي.

فالمجاز العقلي: من اساليب البلاغة العربية تشير إلى مدى البيان والايجاز اذ ان الالفاظ لم تنتقل عن الأصل اللغوي الموضوعه أزانة، ولكن يعرف عن طريق التركيب والاسناد في الكلام ولا علاقة له بالالفاظ، اذ " ان كل جملة اخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من الفعل لضرب من التأول فهي مجاز" (276) وقد سمي عقلياً لرجوعه

(٢٧٠) العمدة : ١ / ٢٦٥ ، ظ: المثل السائر: ١ / ٨٨ ، ظ: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر

والنائر: ١٥٧ .

(٢٧١) ظ: الخصائص: ٢ / ٤٤٢ ، كتاب الصناعتين / ٢٧٤ ، العمدة: ١ / ٢٦٥ ، اسرار

البلاغة: ٣٢٥ ، دلائل الاعجاز: ٢٣٨ ، المثل السائر: ١ / ٨٤ ، حسن التوسل : ١٠٤ ،

الايضاح: ٢ / ٢٦٥ .

(٢٧٢) أسرار البلاغة: ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢٧٣) التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس: ٢٧١

(٢٧٤) ظ: مجاز القرآن: ٩٦ .

(٢٧٥) ظ: م.ن: ٩٤ .

(٢٧٦) اسرار البلاغة: ٣٥٦ .

إلى العقل دون الوضع، فهو مستنبط من الجملة ومستخرج من تركيب الكلام دون النظر في لفظ معين أو صيغة منفردة وقد عدّ العلماء هذا الضرب من المجاز "كنزاً من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الابداع، والاحسان، والاتساع، في طريق البيان، وان يجئ بالكلام مطبوعاً مصنوعاً وان يضعه بعيد المرام قريباً من الافهام" (277).

وقد توسع العرب في استعمال الكلمات بأكثر من معنى فرصدوا طائفة من العلاقات التي سوغت ذلك التوسع وثبتوها، والعلاقة في المجاز العقلي هي المناسبة التي تسوّغ اسناد الفعل أو معناه إلى غير صاحبه، شرط أن تكون هناك قرينة تنفي ارادة المعنى الاصلي وهي الدليل الذي يدل به على انه اريد باللفظ غير معناه الاصلي. الإمام □ يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف ويردد الجمل ليكمل معانيه ويؤكد لها، فكل مجازاته □ تعبر عن حالة شعورية اعتملت في نفس الإمام، فـ"طبيعة المجاز يحقق الابعاد النفسية التي يرمي اليها المتكلم من خلاله باعتباره عنصراً من عناصر التعبير غير المباشر، اذ لابد من أن تكون الدلالة المجازية تحمل معها عنصر الابتكار والدهشة، والمفاجأة، الذي يأخذ بمشاعر المتلقي، ويستولي عليها، حتى يتمكن من إثارة الانفعال المناسب" (278). كان التعبير بالمجاز العقلي عند الإمام □ يعجب به، لما فيه من تلوين الافكار وتوليد للصور وبعث للإحياء بما هو ملائم لطبيعة المعاني.

فمن كلام للأمام □ قال لأصحابه في ساحة الحرب وفيها معنى الحث على القتال:
"إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكِ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ وَضَرْبِ يَفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ وَيَنْدِرُ السَّوَادَ وَالْأَقْدَامَ" (279)

لقد أسند □ الفعلين "يفلق- يطيح" إلى الضرب نفسه، والضرب لا يفلق الهام ولا يطيح العظام، وإنما هو صاحب الضرب، والعلاقة التي اباحت أو سوغت هذا الاسناد، السببية، والقرينة المانعة من ارادة الاسناد الحقيقي هي ادراكنا بعقولنا أن الضرب نفسه لا يفلق ولا يطيح وإنما من قام بالضرب وهم أصحاب الإمام كما نجد "ان الملابس بين المسند والمسند اليه من القوة بدرجة لا تخفى والكلام في حقيقته ليس إلا ضرباً من الترابط بين الأثر والمؤثر، والعلائق زادت الذهن وضوحاً بارزاً، وهذا الوضوح المعنوي هو الذي برزت علاماته في العبارة" (280). وكان □ يلجأ إلى المجاز لينقل إلى أصحابه انفعالاته ورغبته في تصوير ما ينبغي أن يكون عليه قتال أصحابه في المعركة. استعمال الإمام □ للمجاز هنا فيه إعمال للفكر، فقد أشاع □ روح الحركة في قوله أعلاه والسبب يعود إلى مرونة التعبير المجازي الذي افاض قابلية الحس والتمكن في هذا الأمر المعنوي، وهو الحث على القتال، فالمجاز العقلي هو الذي نتوصل اليه بحكم العقل، ودلالته في الجملة تكشف عن حقيقة مراده، فالالفاظ التي كان يأتي بها الإمام □ لم تنقل عن أصلها اللغوي فهي تدل على ذاتها الوضعية بذاتها، والكلمة تجتاز موضعها في اللغة إلى مقارب له أو مشابه، وهذا ما ورد في قوله □ من خطبه له كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد اهل الشام، وفيها يحثهم على القتال، قال:

"اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا التُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرِ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً..." (281).

يسعى الإمام □ إلى التأكيد على أن الاصل هو المقالة العادلة غير الجائرة، فعلى أي مسلم من أصحابه ان ينظر إلى هذه القضية دون غيرها، وعندما يتأكد من ذلك سيندفع إلى نصرته الإمام □ لو كان من يريد أن يتبع الحق، فاذا اسند الفعل إلى نفسه دون هذا المجاز، فقد يتأول بعضهم غير ما يريد ولذلك اثر هذا الاسلوب في الحجة على أصحابه.

وقد أراد □ بقوله "العادلة"، المستقيمة وهي الدعوة إلى الحرب والقتال لتحطيم الشر والفساد و "الجائرة" نقيض العادلة أي المنحرفة فقد أسند □ اسم الفاعل "العدل - الجائر" إلى غير الفاعل الحقيقي، فقد وظف الإمام □

(٢٧٧) دلائل الاعجاز: ١٩٤، ١٩٥.

(٢٧٨) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٠٨.

(٢٧٩) نهج البلاغة: ٤ / ٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٨ / ٨.

(٢٨٠) علم البيان، دراسة تاريخية: ١٤٦.

(٢٨١) نهج البلاغة: ١٩٣ / ٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦٠ / ١١.

المجاز هنا كي يصور هذه الاحداث بهذه الصورة المثيرة تنبيهاً للضمانر وتوجيهاً للعقول وتأثيراً على النفوس، وكان مهمته هو اذكاء الحفيظة في نفوس أصحابه لتلافي التقصير المتعمد في القتال من اجل نصره الحق. والعلاقة سببية، لان في المقالة ما يوضح الطريق الحق والمصلحة في الدين... فقد أضيف اسم الفاعل لتضخيم الحدث وليتجه التفكير نحوه.

هكذا نجد القدرة الابداعية في نصوص الإمام □ كلها على التلازم الذهني بين الأصل الحقيقي للألفاظ والفرع الاستعمالي لمناسبة ما تنقله من معنى أولى الى معنى ثانوي.

ومن قول آخر له □ وفيها معنى الفخر في خطبه له بعد وقعة النهروان ، قال:

"رَضِينَا عَنْ اللَّهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَا لِلَّهِ أَمْرَهُ، أَتُرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَاللَّهُ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ، فَظَنَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بِيَعَّتِي وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِعَيْرِي" (282)

ولا أعلم نصاً في التسليم لله عز وجل، والسير على نهج رسوله في طاعة كهذا النص في أبعاده الإيحائية والرمزية، فهو المصدق لا المكذب، بل هو أول المصدقين فلا يكون العكس أبداً. طاعة سبقت البيعة، وميثاق يمتلك الرقاب، وهنا تتجلى الفكرة تتبع الفكرة، والحركة توالي الحركة: التسليم ، التصديق، الطاعة، الميثاق، الصبر، الوفاء بالعهد، ولان النبي □ أوصاه بالصبر على دائه، وليس في وسعه إلا ان يسمع ويطيع، لأن طاعة الرسول امانة في عنقه" (283)، فبيعته للخلفاء جاءت بسبب طاعته للرسول □ قد أسند السبق إلى الطاعة على سبيل المجاز العقلي للعلاقة السببية.

ومرة أخرى يوظف الإمام □ المجاز من المعنى نفسه في العلاقة ذاتها- السببية- من خطبة له يصف فيها أصحاب رسول الله □ وذلك يوم صفين، حين أمر الناس بالصلح، قال:

"وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى الْقَلَمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ" (284)

وهنا تبدو قمة الفداء والتضحية الخالصة في سبيل هذا الدين القويم بالاجهاز على أعدائه وإن كانوا ذوي رحم وقربى، تصریحاً منه لما كانوا عليه أيام رسول الله □ إذ يقتل المسلمون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم واعمامهم بأمر الرسول وهم على يقين من دينهم، وما يزيدهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً وفي ذلك إشارة إلى القتال، وفي هذا مجاز ليس في ذوات الكلم والالفاظ، ولكن في الاحكام العقلية التي أجريت عليها، فالقتل كان سبباً في زيادة الايمان والتسليم فقد أسند الزيادة إلى غير الفاعل الحقيقي، وهو أشبه بتجسيد القتال - وهو معنى - ووصفه بشيء له إرادة، وقد جاء "التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً بنفسه ومراداً من غير تورية ولا تعريض" (285)، فقد جاء كلام الإمام □ لتحريك عقول أصحابه من غفلتها لتنبيه العواطف وصحة الضمير، وكانت العلاقة - السببية- هي المسوغ لاستعمال هذه الصيغة المجازية، دون الاصل الحقيقي، وهكذا يعد "المجاز مهرباً باعتبار في التفسير والفهم، أو توجيهاً مسوغاً نحو معنى معين خدمة لغرض أو آخر، كما كان النسخ حكماً لما لايقوى المفسرون على توضيحه من تعارض بدا لهم" (286).

كان الإمام □ ينتقي من الالفاظ الموحية ما يثير الخيال وهي من أغراض توكيد المعنى في النفس، وتقريره ومن ثم إثارة الانفعال المناسب، ومنها قوله □ من خطبة له عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة، وقد كان يعني فيها التنفير من خصومه، قال:

"إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ" (287)

قد أسند □ اسم الفاعل - ناطق- لغير فاعله الحقيقي - الكتاب- والعلاقة سببية، فقد جاءت هذه الالفاظ موحية،

(282) نهج البلاغة: ١/ ٨٩ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢/ ٢٩٥ .

(283) في ظلال نهج البلاغة : ١/ ٢٤٢ .

(284) نهج البلاغة: ١/ ١٠٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد: ٤/ ٣٤ .

(285) دلائل الاعجاز: ١٩٣ .

(286) المجاز وأثره في الدرس اللغوي: ١٧٣ .

(287) نهج البلاغة: ٢/ ٨١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٩/ ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

لأن القرآن- الكتاب- هو مادة للتعليم ومصدراً للأحكام وأساساً للعلاقات والمعاملات مع بعضهم بعضاً ولذا جاء بـ"ناطق" تعبيراً عما يوحى من أمور الدين والدنيا فـ"المعاني الجديدة في عملية ابتداعها لا يمكن ادراك حقائقها إلا بالتعبير عنها، والتصوير اللفظي لها، والمجاز خير وسيلة للتعبير عن ذلك بما يضيفه من قرائن وما يضيفه من علاقات لغوية جديدة توازن بين المعاني والالفاظ"⁽²⁸⁸⁾

وظف الإمام □ المجاز العقلي في ايضاح ما كان ينبغي ايضاحه لأصحابه، فمن قوله □ وقد أستنبأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين، وكان في معنى المناظرة والجدل، قال:

"أَمَّا قَوْلُكُمْ أَكُلْتُ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ قَوْلَ اللَّهِ مَا أَبَالِي أَدَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ.." ⁽²⁸⁹⁾

جاء المجاز العقلي ذو العلاقة السببية مرة أخرى -خرج الموت إلي- فالفعل "خرج" أسند إلى الموت، والموت لا يخرج، وإنما عدم مبالاة الإمام □ في تعرضه للموت سواء دخل هو إلى الموت أم خرج، فقد أدرك □ ان من طبع الانسان ان يضع حاجزاً بينه وبين الموت، لذلك قال: أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي، فالأمر واحد لديه، والعلاقة هي التي أباحت أو سوغت هذا الاسناد، والقرينة المانعة من إرادة الاسناد الحقيقي هي ادراكنا بعقولنا ان الموت لا يتحرك، فهو أمر مدرك غير محسوس، وهذا الاستعمال حقق للإمام □ إظهار قدرته على مواجهة الموت في الأحوال كلها.

وهكذا فقد تلونت أساليب الإمام □ معبرة عن مخزون العقول، كاشفة عن مكنون النفوس، ولقد جعل الإمام □ المجاز أداة نفسية، قام بتسخيرها حسب ارادته لإثارة أصحابه فالمجاز هنا يحقق وظيفة نفسية فـ"الابتكار في الاسلوب وهو يصدر عن موهبة طبيعية أو طول مران، وخير الكلام ما نذر به على الظفر بأفكار جديدة في يسر، والكلمات الغريبة تروعا ولا تفيد، بل قد تدخل في باب العجمة إذا كثرت في الكلام، والكلمات المبتذلة لا تثير إلا ما سبق أن علمناه، والمجاز هو خير ما نقف به على أفكار جديدة"⁽²⁹⁰⁾.

وإذا كان المجاز في حقيقته كاشفاً عن دواخل النفس الانسانية، فالإمام □ إنما يحكي فيه التجربة الانفعالية، وما يحيط المناخ العام من مؤثرات أملت على ظروف أصحابه وبيئته في التلون والاختلاف وتشعب الاراء، فيحذرهم تارة، وينذرهم تارة أخرى، عسى أن يستفيقوا من غفلتهم، فيعود الوعي نابضاً، فمن تصريح إلى تلميح، ومن كناية إلى تعريض، ومن حقيقة إلى مجاز، وانظر إليه □ وهو يستعرض الفتن المستقبلية بشفافيته الخاصة، وإدراكه العظيم بمجريات الأمور، فلا يألوهم جهداً من التعريض والنقد فيقول:

"أَلَا وَفِي غَدٍ- وَسَيَّاتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عَمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا وَخَرَجَ لَهُ الْأَرْضُ أَقَالِيذَ كِبِدِهَا وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السَّيِّرَةِ وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ"⁽²⁹¹⁾

جاء المجاز مرة أخرى لكي يعبر عما يجول في فكر الإمام □ من نقد وتعريض لبعض أصحابه، فقد أسند الفعل - تخرج - إلى غير فاعله الحقيقي- الأرض- وكان الأرض هي من تخرج ما في باطنها من كنوز ومعادن، والمسوخ لهذه العلاقة هي المكانية فاسناد الخروج للأرض، هو إسناد مجازي جاء على سبيل التوسع في الكلام . المجازات هنا تضيء المعنى لقوة البواعث النفسية الشديدة عند الإمام □ فهو لم يسلك الطريقة المعتادة في ابراز الصفات مباشرة، وإنما عبر عنها بهذه الصياغة المجازية، فبدت الصور أكثر جمالاً وإثارة، ولأنه "يمثل استجابة واضحة لمنطق العقل وتصورات ما وافق تصورات العقل فهو حقيقة وما لم يوافقه إلا بتأويل فهو مجاز"⁽²⁹²⁾

أما الضرب الثاني من المجاز فهو مجاز من طريق اللغة وهو "إن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة ووقعها على غير ذلك أما تشبيهاً- الاستعارة- وأما لصلة ملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه-

^(٢٨٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ١٥٢.

^(٢٨٩) نهج البلاغة: ١ / ١٠٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤ / ١٢ .

^(٢٩٠) النقد الأدبي الحديث: ١٢٢.

^(٢٩١) نهج البلاغة : ٢١/٢ ، ٢٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٩ / ٤٦ .

^(٢٩٢) المجاز في البلاغة العربية: ١١٣ .

المجاز المرسل..⁽²⁹³⁾

المجاز المرسل سمي مرسلًا لأن الإرسال في اللغة، الإطلاق، والقدماء ذكروا أنواعه وإن لم يسموه وهو تعبير موحى ينقل الذهن آفاق من المعرفة يحققها اللفظ على حقيقته.

يوظف الإمام □ المجاز المرسل لخدمة أفكاره وكما هو معلوم بأنه "فن متسع رحب ينبسط بين يدي الأديب البليغ ليبرع عما يستجد في حياته من مدلولات وليجسد مشاعره وأفكاره بلا عائق من قيد لغوي غير الذوق السليم، والاسلوب العربي الأصيل الذي يرسم شواهد الفنية وأسس التعبير وسبيل التفنن"⁽²⁹⁴⁾ وعلى الرغم من قلة استعمال الإمام □ لهذا النوع من المجاز- والسبب على ما يبدو أنه □ وجد في الصورة البيانية الأخرى الطريق الأسهل لمن يسمع في إيصال أفكاره ومشاعره عند مسيره إلى الشام فخطب بها، وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين وكانت في معنى التشجيع وبث الروح المعنوية، قال:

"أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمِي وَأَمْرَهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوْطِنِينَ أَكْنَافَ دَجَلَةٍ فَأَنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلُهُمْ مِنْ أَفْرَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ "⁽²⁹⁵⁾

أراد □ بالنطفة نهر الفرات، والنطفة الماء القليل، لذا يكون التعبير مجازاً مرسلًا، والعلاقة التي سوّغت هذا المجاز هي الجزئية، أي إن اللفظ المذكور جزء من المعنى المقصود، فانه ذكر الجزء- الماء القليل (النطفة)- وقد أراد به نهر الفرات وهو الكل، وقد جاء □ بهذا المجاز، فقد كان يريد أن يبيث الروح المعنوية في داخل نفوس أصحابه ويحاول أن يذلل لهم ما يمكن أن يتصوروه عظيمًا عليهم، فالأساس النفسي الذي قصده الإمام □ وهو وضع صورة أو معنى أو حالة مكان أخرى، وينشأ ذلك حينما تندمج فكرتان، تدل الكلمة عليها بدلا من فكرة واحدة فأساسه المعنى المزدوج، ولذا يسميه البعض الشعور المزدوج، ومرجع هذا الاندماج إلى الخيال والوجدان ثم إلى إبراز عملهما بصورة لغوية⁽²⁹⁶⁾.

كما استعمل □ قوله (أردت أن أقطع هذه النطفة) على وجه الاستعارة أي أتجاوز، ليدل بذلك على أن ذلك أمر هين لاسيما وإنه أراد بالنطفة ماء الفرات، ولأن قيمة المجاز المرسل، وقدرته على التأثير والتأثر، تعتمد على مهارة الشاعر والكاتب في اختيار الالفاظ الموحية مع ملاحظة العلاقة التي تصحح استعمال هذه الالفاظ مع الجو الإيحائي الذي كانت تنثيره عند ابناء عصر ذلك الشاعر والكاتب⁽²⁹⁷⁾.

وقد ورد المجاز المرسل في هذا النص شاملاً لثلاث من محاسنه⁽²⁹⁸⁾، فقد أفاد المبالغة وإيمان الإمام □ في تحقيق غرضه من تعظيم شأن أصحابه وتصغير شأن أو سعة نهر الفرات- النطفة- ومن ثم حقق الإيجاز وهو مقصد من أهم مقاصد البلاغة.

وهكذا فمهمة المجاز المرسل مهمة لغوية، فاللفظ هو اللفظ والمعنى لذلك اللفظ - اللغة- المعنى نفسه، إلا أنه في دلالاته الثانوية حينما يراد به المجاز نجده قد انتقل بتطور ذهني، ويتصور متبادل اليه في السياق، فهو في حالته الأولى، لم يتغير معناه الحقيقي في استعماله الحقيقي، وإنما بقي على ما هو عليه، وقد كانت القرينة هي الصارفة عن هذا المعنى إلى سواه في الاستعمال المجازي، سواء كانت القرينة حالية أو مقالية⁽²⁹⁹⁾

وبهذا نجد أن "المجاز يشتمل أنواعه هو صورة بديلة، عن كلمة أخرى، ويبرز معناها، وتؤدي، عنه بقرينة لملازمة قوية استقرت في العرف ودلت عليه المشاهدة واستساغها الذوق ورضي بها العقل وتواطأ عليها الناس لما فيها من قوة لغوية وفكرية وشعورية تتسع لاستيعاب تطاول الازمان وتغير البيئات وتجدد الحياة"⁽³⁰⁰⁾ في خطب الإمام □ دلالات ذات أهمية مشتركة نفسية وبلاغية- بيانية- في آن معاً، وهو يعبر في هذه الدلالة

^(٢٩٣) المجاز في البلاغة العربية: ٨٨ ، ٨٩.

^(٢٩٤) البلاغة والتطبيق: ٣٣٦.

^(٢٩٥) نهج البلاغة: ٩٧ / ١، ٩٨، ظ: شرح نهج البلاغة: شرح ابن أبي الحديد: ٢٠١ / ٣.

^(٢٩٦) ظ: الاصول الفنية للأدب: ١٠٨.

^(٢٩٧) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢١٦.

^(٢٩٨) ظ: علم البيان، دراسة تاريخية: ١٥٨ ، ١٥٩.

^(٢٩٩) أصول البيان العربي: ٥١.

^(٣٠٠) بناء الصورة الفنية في البيان العربي : ٣١٤.

عن علاقة الالفاظ بالافكار ، وفي تحليل بعض العلماء لقدرة الاسلوب المجازي على التأثير في نفس المتلقي قال : "إذا عبر عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه، وإذا عبر عنه بمجازه لم تعرف على جهة الكمال فيحصل مع المجاز تشوق إلى تحصيل الكلام" (301)

فقد كانت من وسائل قوة التعبير عند الإمام □ هو استعماله المجازي للكلمات فتؤدي معنى المبالغة المقبولة والايجاز البليغ ، مما يفتح لأصحابه أفقاً للتفكير والتخييل، فضلاً، عن قوة التركيب داخل نصوص خطبه من مسند ومسند إليه (302) ، فأسلوب الإمام □ في المجاز بنوعيه كان ممزوجاً بين تقرير الحقائق وإثارة العواطف. فيستخدم الفكر والوجدان معاً، وينفذ منهما إلى الإرادة ليدفع بها أصحابه إلى عمل من الأعمال المناطة بهم.

علماء أن بين الأساليب المجازية والحقيقة اتفاقاً كبيراً إذ إن كلا منهما يقوم على النسيج اللفظي ويؤدي مهمة التعبير عن المعاني الكامنة في الصدور والعواطف المنوهجة في خفايا الضمير (303). لذا جاء المجاز في خطب الإمام □ الحربية مستندة إلى قيم إنسانية باقية دخلت التراث الأدبي وبقيت حية دائمة التأثير. لم يكن جمالها في اللفظة المفردة، والجملة والخيال... والبناء العام... والنوع... إن هذه مشتركة يضاف إليها "الاسلوب" الجانب الأصيل الذي يرتفع بالنص إلى مستوى الروائع الخوالد ويميز صاحبه عن سواه (304)، وهذا ما رأيناه في خطب الإمام عامة وفي خطب الحرب خاصة.

(301) الطراز: ٨٢ / ١ .

(302) ظ: الاسلوب: ١٩٥، ١٩٦ .

(303) المجاز في البلاغة العربية: ٢٣٤ .

(304) ظ: مقدمة في النقد الأدبي: ٣٣٢ .

المبحث الثالث

الاستعارة

الاستعارة :

تعد الاستعارة ركيزة أساسية من ركائز التعبير في اللغة العربية، كما تعدّ "من أبرز طرق التعبير غير المباشرة القائمة على التخيل"⁽³⁰⁵⁾، وقد وقعت في لغة العرب قديماً قبل أن يتحدد مفهومها الاصطلاحي، وكثر الحديث عنها، لذلك وضع البلاغيون والنقاد لحسنها وجمالها شروطاً واهتموا بها فهي "أفضل المجاز... وليس في حلى الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"⁽³⁰⁶⁾. وقد تشابهت تعريفات العلماء في تحديد هذا المصطلح – الاستعارة – في نقل المعنى من لفظ إلى لفظ، واستحداث معنى جديد في اللفظ وجعل الكلمة ذات دلالة لم تجعل لها في أصل اللغة⁽³⁰⁷⁾.

الاستعارة: لفظ مستعار، أو تشبيه حذف وجهه، وأداته، واحد طرفيه والعلاقة فيه أن يكون بين المعنى الذي نقل عنه اللفظ والمعنى الذي نقل إليه رابط معنوي يربط بين الاثنين ومن ثم تؤلف عملية إبداع جديدة تضيف على اللفظ إطار المرونة والنقل والتوسع، وتضيف إلى المعنى مزايا خاصة نتيجة هذا النقل الذي قد دلّ على معنى آخر لا يتأتى من اللفظين خلال واقعه اللغوي.

وقد لخص الجرجاني مزية الاستعارة وفائدتها وقيمتها في التعبير إذ قال: "إنها تبرز هذا البيان ابداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحدة من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف مفرد، وفضلة مرموقة، وخلاصة موموقة، ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ.. بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة..."⁽³⁰⁸⁾

والاستعارة تعطي الأديب إمكانية التعبير بألفاظ غير محددة، وتسلمه إلى عالم من الخيال يتناسب ووحدة شعوره، وشدة انفعاله فالخيال هنا مكمل لما تعجز عن أن تعبر عنه، ويعد أداة لاستيفاء ما يشعر به من نقص بأزاء لغته، وكثير من علماء العربية عدّوا الخيال العربي "هو المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذيه الشاعر فهم إذ نجحوا في فـرض مقـاييس لغويـة أو نحويـة أو عروضية معينة- وأجمع الأدباء والعلماء والشعراء أنفسهم على احترامها- إلا أنهم لم ينجحوا حقاً في حد الخيال الشعري المتجدد لأن ذلك يخضع قبل كل شيء لا إلى التقليد والرواية وإنما يخضع إلى ذات الشاعر ونفسيته وإلى تربيته وبيئته وظروفه"⁽³⁰⁹⁾.

فنشبيهاات العرب هي أساس الاستعارة، وهي صورة لما أدركه العرب في بواديهما وما تمضي عليه حياتهم اليومية، فلا تعدو أوصافهم ما يرونه ويجربونه.

نرى الإمام □ في كثير من المواضع يعبر بالصورة الملموسة المحسوسة عن المعنى الذهني أو الحالة النفسية فتتوثق صلة المتلقي أو القارئ بالمعنى، ومن ثم تستقر في ذهنه، وتؤثر في فؤاده، وتتجاوب اصداؤها في نفسه فيمتلئ بها احساساً وشعوراً ويعرف ما فيها من مغزى واضح وجلي أو خفي مستور.

جمال الاستعارة عند الإمام □ يرجع إلى أنها تصوّر المعنى تصويراً يحقق الغرض مع إيجاز في اللفظ وشيء من المبالغة المقبولة وتفتح آفاقاً للتفكير والتخيل، ففوة الصورة من قوة الأسلوب⁽³¹⁰⁾. كثر التصوير بالاستعارة كثرة بينة في خطب الحرب للإمام □ فقد كانت الوسيلة الرئيسة عنده.

(³⁰⁵) الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية: ٢٢١.

(³⁰⁶) العمدة: ٢٦٨ / ١.

(³⁰⁷) ظ: البيان والتبيين: ١ / ١٥٢، كتاب الصناعتين: ٢٧٤، العمدة: ١ / ٢٦٨، اسرار

البلاغة: ٢٨... ٦٥، المثل السائر: ٢ / ٧٠، بديع القرآن: ١٧، حسن التوسل: ١٢٦،

الايضاح: ٢ / ٢٧٨.

(³⁰⁸) اسرار البلاغة: ٤١.

(³⁰⁹) النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف: ١٢٥.

(³¹⁰) ظ: الأسلوب: ١٩٦.

ولقد كان نصيب الاستعارة المكنية (311) ، وافرأ في خطب الحرب للإمام □ فمن خطبته في حث أصحابه على القتال بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام، قال:
 "وَقَدْ قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنُهُ وَظَهْرُهُ" (312)

شبه □ الأمر وهو معقول بمحسوس له بطن وظهر وقد حذف المشبه به وابقى بعض لوازمه- البطن والظهر- ومعنى ذلك تحققه من الأمر، والوقوف على أنحائه اذ تدبره ملياً فكانت الاستعارة المكنية أقدر على تجسيد ما يريد، وقد عدّ الجرجاني هذا القسم من صميم الاستعارة قائلاً: "وهو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها" (313) حيث أخذ المعنى المشترك في هذه الحالة من التصورات العقلية المحضة.

وقد ذهب أغلب أهل البلاغة الى إن الاستعارة المكنية أبلغ من الاستعارات الأخرى- التصريحية- "وذلك لان الانتقال فيها من الحد الذي يوهم أنه لا نقل في الكلام" (314)

ومن المعنى نفسه في حث أصحابه على القتال في بعض ايام صفين، قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ وَتَجَلَّبَبُوا السَّكِينَةَ" (315)

لقد جمع الإمام □ في هذا القول بين استعارتين وكلما جمع بين عدة استعارات كان الكلام أروع وأجود وذا إحياء شديد التأثير (316) . والمراد بهما، الاستعارة الأولى: هي ملازمة الخشية والتقوى كما الشعار يلزم الجلد، والاستعارة الثانية في جعل السكينة جلباباً، وهنا أبرز □ المعقول المجرد بصورة المحسوس الملموس، اذ عمد □ إلى نقل اللفظ من أصله في اللغة إلى غيره ويجوز به مكانه الأصلي إلى مكان آخر لأجل الأغراض التي ذكرت من التشبيه والمبالغة والاختصار، كما نراه □ يمزج الشعور باللفظ والمعاني المجردة بالصور الحسية، وكما يبدو ان الإمام □ يعتمد إلى الاستعارة عندما يشعر ان اللغة الاعتيادية عاجزة عن التعبير عن انفعالاته. وتعد- الاستعارة- عند الإمام □ اسلوباً مشرقاً من أساليب الصور الفنية التي تجمع إلى جنب العمق في نقل اللفظ واضافة المعنى الحس والحياة.

ويوظف □ الاستعارة المكنية مرة أخرى في المعنى نفسه، حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية فلم ينهض أصحاب الإمام □، قال:

"قَاتَلَكُمْ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قُلُوبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّ عُنْمُونِي تُعَبَّ النَّهْمَامُ أَنْفَاساً" (317)

من بليغ كلام أمير المؤمنين، فقد جعل التهمام وهو الهم: ما يشرب فيه استعارتان ايضاً، شبه التهمام بما يشرب وأشار إلى شيء من لوازمه وهو الجرعة لفظة "جرع" وما توحى به من تقزز النفس من مشروب الهم، فضلاً عن أن الفعل "جرع" وتشديده هكذا يومئ إلى الامعان في التجريح مرة بعد أخرى، والاستعارة الثانية فقد جاءت "أنفاساً" لمعنى العبء الذي لقيه منهم - أي أنهم جرعه الهم مرة بعد أخرى نفساً بعد آخر- فما ان ينتهي النفس الأول حتى يأتي الثاني.. وهكذا، فقد تضافرت الاستعارتان لتجسيد مراد الإمام □ مما بدر من أصحابه لعدم طاعتهم لأمره. لقد علل البلاغيون أنس النفس بالمدركات الحسية أعظم من أنسها بالمدركات المعنوية، ذلك أن الحس هو الطريق الأول لادراك النفس ومعرفتها (318) . هذا التشخيص قد أعطى الصورة ومنحها حيوية وفعالية أكبر في التأثير، وهذا ما نجده في استعارات الإمام □.

(٣١١) "وهي التي اختلفت فيها لفظ المشبه واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه": معجم المصطلحات البلاغية: ١ / ١٤٥ .

(٣١٢) نهج البلاغة: ١ / ١٠٣ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦ / ٤ .

(٣١٣) اسرار البلاغة: ٦٠ .

(٣١٤) المجاز في البلاغة العربية: ١٢٤ .

(٣١٥) نهج البلاغة : ١ / ١١٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٥ / ١٦٨ .

(٣١٦) ظ: نهاية الايجاز: ٩٠ .

(٣١٧) نهج البلاغة: ١ / ٧٠ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٨٠ / ٢ .

(٣١٨) ظ: اسرار البلاغة: ١٠٩ .

ويستثمر الإمام □ الاستعارة المكنية هذه المرة وهو يصف فيها أصحاب رسول الله □ وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح، قال:

"وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا اخْضَرَ لِلْإِيمَانِ عُودٌ" (319).

يشير □ إلى أن البيت لا يقوم إلا على العمود، أما الإيمان فهو يحتاج إلى التربة الصالحة للنمو حتى تخضر أعواده، فقد وهب الإمام □ للجماد العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس لأن تذكير المسلمين بأصحاب رسول الله □ قد يحرك فيهم شعوراً يدفعهم لسماع الإمام □ وطاعته، فقد أنزل الاستعارة منزلة الحقيقة وذلك أنه استعار الوصف المحسوس للشيء المعقول وجعل تلك الصفة ثابتة لذلك الشيء في الحقيقة (320). ومرة أخرى يعود الإمام □ ويوظف الاستعارة نفسها في أسلوب نقد وتعريض لأصحابه في إحدى خطبه المشتملة على الملاحم إذ قال:

"عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَ هَا بِأَنْيَابِهَا" (321)

جعل الإمام □ من الفتنة قالباً حسيّاً، فشيهاً، بحيوان، فاغر فمه حتى برزت الانياب، وهي تصطك انطباقاً على من أثارها وأرادها وعبر عن ذلك بأبنائها، وذلك مشهد يوحي بفضاعة الأمر من جهة، وفضاظة النتائج من جهة أخرى، ولهذا نجد أن أمثال هذه الاستعارات النابضة "تشكل مثلاً للأدب الذي يؤلف بين الفن والغاية النفعية الالتزامية إذ مهما اضطربت نفس الخطيب وازدحمت بالانفعالات فانه لا يتخلّى في عبارته عن الاداء البليغ والصور الفنية وسنة الأيحاء والتمثيل" (322)

والمتلقي يجد الإمام □ في هذا يستنطق الكلمات ويوضح العلاقات الخفية التي تعبر عن كوامن النفس فكان يربط بين الأشياء المتباعدة، فالاستعارة كانت ثرية بعلاقات جديدة ذات دلالات عميقة كما استعمل □ الاستعارة التصريحية (323)، التي لاتسمح كثيراً بأحالة الفكر، لان المقارنة بين طرفيها تكون واضحة ومع ذلك كانت دلالتها عميقة ايضاً.

كما قال □ من المعنى نفسه في نقد وتعريض من رفض مبايعته، قال:

"اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَكَاً" (324).

الإمام □ يضيف على من اتبع الشيطان صفة من اتخذ الشيطان ملاكاً طهوراً يجب اتباعه، والشيطان نفسه اتخذ هؤلاء اتباعاً يأثمرون بأمره، وحبائل يتمسكون بها عند إتباع الهوى ومجانبة الرشد، فهم لم يكتفوا باتباع الشيطان وانما جعلوه ملاكاً ومالكاً لأمرهم وموجهاً لرغباتهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الشيطان نفسه جعل هؤلاء شركاء له فيما يريد، فقد أعطت الاستعارة هنا صورة مفزعة لحال هؤلاء لمن عنده بقية إيمان في قلبه، وساعدت على ترسيخ إيمان أصحابه بانه على حق بعد أن تخيلوا هذه الصورة لخصومهم.

نجد الاتحاد وشدة الامتزاج بين المشبه والمشبه به هو الذي يجعل الصورة في الاستعارة أكثر مبالغة منها في التشبيه وابتعد أثراً وكان الإمام □ كان يعلم تماماً أن "الاستعارة إنما تستند أصلاً إلى نقل وأدعاء وعلاقة مشابهة.. وإن الادعاء لا يجعل من الكلام حقيقة ذلك لانه يقوم على مفهوم النقل ومتى ما عرفنا ان المتكلم قد أنكر مفهوم النقل ايضاً فاننا سنقرر في شيء من الاطمئنان ان الكلام حقيقة بالنسبة له" (325).

إذ قال □ في الخوارج:

"بَعْدُ لَهُمْ كَمَا بَعْدَتْ تُمُودٌ، أَمَّالُوا أَشْرَعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ وَصَبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى

(319) نهج البلاغة: ١/ ١٠٥، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤/ ٣٤.

(320) ظ: حسن التوسل: ١٢٨.

(321) نهج البلاغة: ١/ ١٩٥، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧/ ١٠٠.

(322) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٢٨.

(323) "هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه" معجم المصطلحات البلاغية: ١/ ١٥٥.

(324) نهج البلاغة: ١/ ٤٢، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١/ ٢٢٨.

(325) المجاز في البلاغة العربية: ١٢١.

هَامَاتِهِمْ⁽³²⁶⁾

شبه □ وقع السيوف على رؤوس الخوارج بصب المياه من جهة سرعة نزولها عليهم واختيار الهامة دون أجزاء الرأس الأخرى يعطي تأكيداً للموت الحقيقي، فجاءت الاستعارة هنا ممزوجة من لوني الحياة المادي والمعنوي⁽³²⁷⁾ ، فسرعة سقوط السيوف على هاماتهم جاءت معبرة عن حركة النفس ومشاعرها الوجدانية فـ"صَبَّتْ" صورة حسية والتي كان لها أثر في النفس ومن ثم كانت الصورة الاستعارية متفاعلة الأطراف.

كما ورد في إحدى خطبه □ وهو يصف خصومه، أصحاب الجمل، بأسلوب النقد والتعريض أيضاً، قال :
"وَقَدْ أَرَعَدُوا وَأَبْرَقُوا وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْقَتْلُ، وَلَسْنَا نُرْعَدُ حَتَّى نُوقِعَ، وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمَطِّرَ"⁽³²⁸⁾

جمع الإمام □ في هذا القول بين استعارتين أيضاً، فقد استعار، الإرعاد والإبراق للوعيد والتهديد، ومن ثم استعار السيل للأصابة، والمطر لتحقيق الفعل، ففي الاستعارة الأولى، "الضوضاء والجلبة أماراة الجبن والعجز، وهو صفة أصحاب الجمل الذين ارعدوا وأبرقوا بلا مطر، وإن الصمت والسكون أماراة الشجاعة والبطولة وهي من صفات الإمام □"⁽³²⁹⁾

أما في الاستعارة الثانية فيقول " أن أصحاب الجمل في وعيدهم وإجلابهم بمنزلة من يدعي انه يحدث السيل قبل أحداث المطر! وهذا محال، لأن السيل إنما يكون من المطر؛ فكيف يسبق المطر! وأما نحن فإنا لا ندعي ذلك، وإنما تجري الأمور على حقائقها، فإن كان منا مطر كان منا سيل، وإذا أوقعنا بخصمنا أو عدنا حينئذ بالايقاع به غيره من خصومنا"⁽³³⁰⁾

فكلامه □ كان نقداً وتعريضاً كما عبر هنا عن المبالغة في الحدث بنجاح، فهي شرط في الاستعارة دون المجاز⁽³³¹⁾ ، ولا يخفى ما في هذه الاستعارة من حرص الإمام □ على تطمين أصحابه إلى ما ستؤول إليه نتائج المعركة القادمة، بعد أن كثر التهديد من الطرف الآخر، فجاءت الاستعارة تحمل في دلالتها اشارات النصر القريب، المتمثل بسيل الماء بعد المطر، فبدت الاستعارة هنا منسجمة مع الحالة النفسية ومعبرة عنها، إذ ان تفاعل عناصر الصورة الاستعارية مع بعضها ومع التجربة الشعورية والجو النفسي مما يعطيها قدرة وفاعلية في التأثير والاثارة⁽³³²⁾ ، وهذا ما سنلمسه من الاستعارة التي وظفها الإمام □ في إحدى خطبه في الاستتصار على قريش، قال:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِينُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي.." ⁽³³³⁾

قصد الإمام □ أن قريش هم رهط رسول الله □ وهم رهط الإمام كذلك، فالدعاء عليهم من الإمام □ يستوقف السامع، إذ كيف يدعو على رهطه، وهنا يأتي دور الاستعارة في تسويغ هذا الدعاء من خلال تهويل عمل هؤلاء حينما قطعوا رحم الإمام □، وهذا ما يتنافى مع تعاليم الدين، ويخرج عنه، فالذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل هو جرأة على أوامر الله تعالى، ولهذا استحق هؤلاء هذا الدعاء من الإمام □ فلقد نهضت الاستعارة بتهويل هذه الصورة، لأن الرحم يستدعي المحافظة، على الصلة فكان القطع أشد إيلاماً، وتتضح قيمة الاستعارة من قدرتها على تجاوز العلاقات اللغوية المألوفة بين الالفاظ، وخلق علاقات جديدة بينها تسمح بتوسيع دلالتها ومن ثم أكسبتها قدرة على الإحياء بالجديد من المعاني.

كما نجد الاستعارات المتوالية في إحدى خطبه □ وكانت في توبيخ الخارجين عليه، فيقول:

(^{٣٢٦}) نهج البلاغة: ٢ / ١٠٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٠ / ٧٥.

(^{٣٢٧}) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٢٥.

(^{٣٢٨}) نهج البلاغة: ١ / ٤٢، ٤٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١ / ٢٣٧.

(^{٣٢٩}) في ظلال نهج البلاغة: ١ / ١١٧.

(^{٣٣٠}) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١ / ٢٣٧.

(^{٣٣١}) ظ: حسن التوسل: ١٢٨.

(^{٣٣٢}) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٢٣.

(^{٣٣٣}) نهج البلاغة: ٢ / ٨٥ ، ظ : شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد: ٩ / ٣٠٦.

"فَلَا تُفْنِنُ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنِّهِ" (334)

كان اختلاط الأمر عند بعض الناس، هو الذي كان وراء اختيار الإمام □ لهذه الصورة، فقد استجمع تفصيلات موضوعه وعرضها في أسلوب موجز مكثف، فنقب الباطل كفيل باظهار الحق، بل لعل الحق لا يُعرف إلا إذا كان هناك باطل، ففي قوله □ "لانتقبن الباطل" استعارة مكنية، فقد جعل □ الباطل أشبه بما ينقب، فحذف المشبه به، وأشار إلى الفعل الذي يكون دونه وهو التنقيب، وهناك استعارة مكنية أخرى، فحتى يخرج الحق من جنبه فقد شبه الباطل بذي جنب فحذف المشبه به وأشار إلى "الجنب" وهو أحد لوازمه، وكان في القول كله استعارة تمثيلية (335)، فقد شبه حاله □ في اظهار الحق بحال من ينقب الباطل ليظهر الحق منه. ويعود الإمام □ مرة ثانية ويستعمل صورة مشابهة لما أوحاه في النص السابق اذ بدا التمثيل في غاية اللطف، إذ قال:

"وَأَيُّمُ اللَّهِ لَأُبْقِرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ" (336)

لقد كانت خطب الإمام □ مشبعة بروح التقوى والدعوة لمظاهرة الحق على الباطل والدين على الدنيا "وكأنه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه، ومحبطاً به، فاذا بقر ظهر الحق الكامن فيه" (337)، فقد بدا لنا "الحق" داخل كائن حي ممتليء، عبر عن هذا الكائن "بالباطل" فحتى يصل إلى الحق، عليه ان يقرر بطن الباطل وأختار "الخاصرة"، لأنها أكثر المناطق إماتة للباطل حتى يظهر الحق على حساب موت الباطل دون عودة، اذ تبدو اللفظة محيطة بمعناها إحاطة شاملة، كما يبدو المعنى في إطار صورة حسية، وبتأثير الانفعال والاحساس، هي أقرب إلى النفس، لأنها أكثر حرارة، وحيوية وصدقاً. فالتمثيل في النصين أو الاستعارتين "يقوم على التشبيه المنتزع من مجموع أمور الذي لا يحصل لك إلا جملة من الكلام أو أكثر لأنك قد تجد الالفاظ في الجمل التي يعقد منها جارية على أصولها وحققها في اللغة" (338)، فالإمام □ لا يتحدث عن الباطل والحق بظاهر الكلام دون باطنه، بل على العكس، فان أيمانه الراسخ بحقه هو الذي أورى لديه ذلك الغضب.

مثلاً قال □ بصيغة المناظرة والجدل موظفاً الاستعارة لخدمة هذا الغرض عندما استبطن أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين، قال:

"فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعُشُوَ إِلَى ضَوْئِي" (339)

إن الإمام □ يستثمر الاستعارة لاثارة قضايا فكرية في أذهان أصحابه وخصومه، فاذا كان الهدف من الاستعارة هو تحريك الخيال أو ضرب من الخيال، فإن الإمام □ استطاع ان يحرك الذهن بواسطة الخيال. فالضوء الذي يجسده الإمام قادر على هداية من يعيشو لانه سيستدل به ولو بعد حين وذلك "لأن بصائر أهل الشام ضعيفة، فهم من الاهتداء بهداه □ كمن يعيشو ببصر ضعيف إلى النار في الليل" (340) إذ يرمي إلى أن الحق واضح لمن يرى، أما من يعيشو فعله يهتدي فالاستعارة هنا قد أفادت "شرح المعنى وفعلت في النفس ما لا تفعله الحقيقة وتفيد تأكيد المعنى والمبالغة فيه والايجاز وتحسين المعنى وابرازه، ثم هي إلى جانب ذلك كله طريق للتوليد والتجديد، لانها تكشف عن صورة جديدة ومعان بديعة" (341).

ومن كلام آخر للإمام □ في عتاب وتقريع بعض أصحابه من اهل العراق، قال:

"وَلَقَدْ بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَقُولُونَ عَلَيَّ يَكْذِبُ، قَاتِلُكُمْ اللَّهُ فَعَلَى مَنْ أَكْذَبُ أَعْلَى اللَّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ

(334) نهج البلاغة: ١ / ٨١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢ / ١٨٦ .

(335) ظ: معجم المصطلحات البلاغية: ١ / ١٥٦ .

(336) نهج البلاغة: ١ / ٢٠٠ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ١١٦ .

(337) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ١١٦ .

(338) اسرار البلاغة: ٢٢٠ .

(339) نهج البلاغة: ١ / ١٠٤ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤ / ١٣ .

(340) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٤ / ١٣ .

(341) البلاغة العربية: ٢٢٧ .

أَمِنْ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ، كَلَّا وَاللَّهِ وَلَكِنَّهَا لَهُجَّةٌ غِيْثُكُمْ عَنْهَا وَلَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَيَلْمُهُ كَيْلًا بَغِيرَ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وَعَاءٌ⁽³⁴²⁾

وهنا نجد الإمام □ يشير بمرارة وخيبة أمل إلى سعة علمه الفياض الذي لم يستطع أصحابه ولا أتباعه من الاستفادة الجادة به، فعمد إلى التعبير عنه بقوله "ويلمه كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء" فإن الاكتيال للبضائع عادة ما يكون بثمن يقابلها قيمتها، ومع إن الإمام □ قد بذل علمه للغادي والرائح، ولكنه لم يجد له حملة، ولا صدوراً واعية تستوعب هذا الكنز المتموج بالمعارف الالهية، فهو والحالة هذه لا وعاء له ولا أنية، وقد أتاهم عفويًا وفطريًا، كما تأتي البضاعة لمريديها دون ثمن أو مال، وفي ذلك من مرارة الشكوى والالام، لأنه □ يسير إلى نفاسة نصائحه، وعلومه ومعارفه، ولكن لا يعابها، ولا يستمع إليها، ولا يهتدى بضوء نورها.

الاستعارة هنا حولت "الأشياء المعنوية إلى صورة حسية فتجعل الشيء مرئياً أو مسموعاً أو ملموساً أو مذاقاً، فتبقيظ النفس للأحاساس به أحساساً قوياً كاملاً"⁽³⁴³⁾ ففي قوة الشبه بين الطرفين تحسن الاستعارة ويقبح التشبيه⁽³⁴⁴⁾. وكما ذكرنا سابقاً بأن الإمام □ يجمع بين أكثر من استعارة في النص الواحد حتى تبرز لنا الصورة أكثر إيحاءً وتأثيراً ففي قوله من المعنى نفسه في عتاب أصحابه وتقريعهم عند ورود خبر استيلاء معاوية على اليمن، قال: "مَا هِيَ إِلَّا الْكُوفَةُ أَقْبَضُهَا وَأَبْسَطُهَا"⁽³⁴⁵⁾

وحينما ملئ الإمام □ بتناقل أصحابه من الجهاد قال "ما هي إلا الكوفة اقْبَضُهَا وَأَبْسَطُهَا" ويحتمل ان يريد الإمام □ سلطته وسيطرته على الكوفة كما يسيطر الانسان على يده في القبض والبسط في صورة حسية نابضة، أو قد يريد بذلك هيمنة المالك على ملكه يتصرف به أنى يشاء، دون معارض أو دون من لا يملك حقاً في التصرف، وقد جاء هنا على سبيل الاستعارة التصريحية.

على ان هناك وجهاً آخر تعتد به في إرادة الإمام □ باعتبار الكوفة كالثوب او البساط القابلين للقبض والبسط، فحذف المشبه بذكر شيء من لوازمه.

وعلى الرغم من أن المعاني التي تمثلت في بعض خطب الإمام □ تبدو في مجملها، شائعة يسيرة لكنها ظهرت في حلة بلاغية، حتى تبدو للسامع وكأنه يسمعه لأول مرة لتمكنها من نفس السامع، كما إن عناية الإمام □ بالواقع النفسي بما يثير عواطف سامعيه فالاستعارة لديه وليدة الخيال، والادراك الحسي للأشياء يقوم على الحقيقة.

ومن قول آخر للإمام □ وقد جاء فيه تهديد لعدوه وإنذاره من خطبة له في ذم الناكثين، قال:

"وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أَمَّا قَدْ فَطَمَتْ"⁽³⁴⁶⁾

وهنا نلتصق الاستعارة التمثيلية، وقد سماها القزويني بالمجاز المركب⁽³⁴⁷⁾، والمعنى في قوله □ ان من يطلب أمراً بعد فواته كطالب الرضاعة بعد فطمه وقد ذهب لبن أمه، وقد أرسلها الإمام □ مثلاً، ووجه الشبه هو الحالة الحاصلة من عدم إدراك الشيء وبلوغه بسبب فواته، وقد كان الإمام □ يدرك في حدسه أن الصورة أبلغ من الفكرة، لهذا كثرت الصورة الواقعية في خطبه وفي استعاراته التمثيلية خاصة⁽³⁴⁸⁾، ممثلة عواطفه التي كانت تترجح بين الغيظ والنقمة والتهديد والوعيد والحث والتحريض مفعمة باليأس والمرارة، كل ذلك كان محاطاً بـ"حلة بيانية التي تشرق فيها اللفظة اشراقاً وتتمزق عبرها حجب النفس والأشياء، فيأتي المعنى وهو ينطوي على معان، وترد اللفظة

⁽³⁴²⁾ نهج البلاغة: ١ / ١١٩، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٦ / ١٣٤.

⁽³⁴³⁾ القرآن والصورة البيانية: ١٧٣.

⁽³⁴⁴⁾ ظ: حسن الصنيع: ١٦٠.

⁽³⁴⁵⁾ نهج البلاغة: ١ / ٦٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٣ / ٣٣٣.

⁽³⁴⁶⁾ نهج البلاغة: ١ / ٥٩، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١ / ٣٠٤.

⁽³⁴⁷⁾ "هو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في

التشبيه أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالآخرى، ثم تدخل

المشبه في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من

الوجوه" الايضاح: ٢ / ٣٠٤.

⁽³⁴⁸⁾ ظ: نهج البلاغة: ١ / ٤٣، ٦٧، ٢ / ٢٣٣.

وكانها تنطوي على الفاظ، وتجعل علياً إمام البلاغة بقدر ما هو إمام الدين والسياسة⁽³⁴⁹⁾.
كما نجد إمتزاجاً لعناصر الاداء البياني بطرق ابداعية متباينة مع الاستعارة في تكوين صورة أو هيئة معينة،
وإن الباعث الأول لخطب الإمام □ في الحرب هو الانفعال الذي توحدت فيه ذاته وموضوعه وبالتالي يخرج كلامه
مزيجاً من الفنون البلاغية عامة ومزيجاً من عناصر البيان خاصة.

وقد جسد □ في إحدى خطبه الخاصة بالحرب، شكواه، إذ قال:
"فَحَدُّوا لِلْحَرْبِ أَهْبَتَهَا، وَأَعْدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، فَقَدْ شَبَّ لَهَا ظَاهَاً وَعَلَا سَنَاهَا"⁽³⁵⁰⁾

نجد □ قد وظف الاستعارة المكنية لتهويل صورة الحرب فقد شبه الحرب بالنار ولكنه حذف النار وابقى ما
يدل عليها وهو قوله: "شَبَّ لَهَا ظَاهَاً" على سبيل الاستعارة الترشيفية⁽³⁵¹⁾.

كما نجد إلى جانب هذه الاستعارة كناية عن شدة الحرب أو ابتدائها بشبوب اللظى وعلو السنا... والكناية هنا
عن صفة فوجود الاستعارة إلى جانب الكناية قد زادت الصورة التي اراد الإمام □ توضيحها فجاءت صادقة التعبير
ذات ايعاء وتأثير ورسمت بحق ما يحدث من الحرب عند وقوعها.

وفي قول آخر له □ يصف فيها شدة الحرب من إحدى خطبه، قال:

"وَمَاجَتْ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا"⁽³⁵²⁾

فقد جعل الحرب □ كالبحر المائج الغاضب فالإمام "يعمد إلى الصورة التي تطرأ عليها ظلال خيالية يضفرها
العقل ويحفرها بحيث تتوازن العوامل الانفعالية والعقلية والخيالية، ومهما أشد خياله ونأى، فانه يغترف من معين
العقل بقدر ما يتخضب بخضاب العاطفة"⁽³⁵³⁾ فقد استطاعت الاستعارة المكنية هنا إلى جانبها الكناية أن ترسم لنا
حقيقة مشاعر الإمام ومدى إحساسه تجاه الحرب عند وقوعها وما يمكن أن تخلفه فهي كالبحر، هذا ما أراد □ أن
يصوره لأصحابه.

ومن قول آخر للإمام □ لأصحابه في بعض أيام صفين وهو يحثهم على القتال مزاجاً بين عناصر الاداء
البياني - الاستعارة مع الكناية- في تجسيد كل ما يريد ان يرمي به إلى أصحابه، فيقول:

"وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعِثَ اللَّهُ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَاوَدُوا الْكَرَّ
وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌّ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارُ يَوْمِ الْحِسَابِ"⁽³⁵⁴⁾

الإمام □ هنا اراد بالعين الرعاية والعناية والحفظ، وقد كنى عن صفة الباري عز وجل أي حمايته ورعايته،
إن ثقافة الإمام وخبرته العميقة بطبائع النفس البشرية أختار العين كي يطمئن أصحابه بأن العلي القدير يراهم ويعلم
اعمالهم، ودعم ذلك بأنهم إنما يسيرون إلى الجهاد بقيادة ابن عم رسول الله □ فهو يمثل رسول الله في أهدافه ونظراته،
وفي ذلك ما فيه من قوة الدفع ورصد البعد المعنوي لدى المقاتلين إن كانوا مؤمنين حقاً.

ومن خطبة أخرى قالها □ عند مسيره إلى الشام، إذ قال:

"وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ"⁽³⁵⁵⁾

تحمل هذه الخطبة في طياتها تهديداً وإنذاراً فقد استعمل □ "أقطع" على وجه الاستعارة أي اتجاوز ليدل
بواسطة الاستعارة، إن ذلك أمر هين، ومن ثم عمد إلى استعمال لفظة "النطفة" وهي الماء القليل، وكان يريد "بالنطفة
ماء الفرات"⁽³⁵⁶⁾، لذا يكون التعبير مجازاً مرسلأ لعلاقة الجزئية، أما العنصر الثالث يمكن أن يفهم من سياق العبارة
وهو أراد كناية الفرات ولأن "معاني الإمام في خطبة تصدر جميعاً، عن انفعال صادق، فانه يتوسل إليها بالفكرة

⁽³⁴⁹⁾ فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٣٤.

⁽³⁵⁰⁾ نهج البلاغة: ٦٧ / ١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦١ / ٢.

⁽³⁵¹⁾ "هي التي قرنت بما يلئم المستعار منه، أو هي ان يراعي جانب المستعار ويولي ما

يستدعيه ويضم اليه ما يقتضيه": معجم المصطلحات البلاغية: ١ / ١٥٣.

⁽³⁵²⁾ نهج البلاغة: ١٩٥ / ١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٧ / ١٠٠.

⁽³⁵³⁾ فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٥٦.

⁽³⁵⁴⁾ نهج البلاغة: ١١٤، ١١٥ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٥ / ١٧٣.

⁽³⁵⁵⁾ نهج البلاغة: ٩٧ / ١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣ / ٢٠١.

⁽³⁵⁶⁾ شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣ / ٢٠١.

المشبعة بالغلو في طبيعة أدائها، يومي إلى ذلك من شدة إغاله في التفكير وإدراكه من المعاني نهاية مطافها⁽³⁵⁷⁾. وهكذا فالحلة الجمالية بلغت أوجها في استعارات الإمام □ إذ تعاضم الأداء الخيالي والانفعالي دون أن تتدنّى الثقافة والمضمون الإنساني على الرغم من اللحظات التي كان يبيت فيها □ خطبه.

خطب الإمام كانت ثرية بالاستعارات فكان اختياره للألفاظ موفّقاً وعرضها بهذه الطريقة الاستعارية أوسع دلالة وإحياء لألفاظها وأخيراً كانت ذات بعد خيالي ونفسي وغالباً ما يقيد المجردات بتعبيرات حسية تساعد على تتبع تفاصيلها ولأن "الخيال أو التصوير مرده إلى قصور الألفاظ ومعانيها الحقيقية عن التعبير عما يشاهده الأديب في حياته النفسية الداخلية من مشاعر... فيتحوّل من مجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة"⁽³⁵⁸⁾، فهي أعلى مراتب الفصاحة⁽³⁵⁹⁾، وهي "أشرف ما بعد في القواعد المجازية وأرسخها عرفاً فيه"⁽³⁶⁰⁾، وهكذا كانت بلاغة الاستعارة عند الإمام □ آتية من ناحيتين: فبلاغته من ناحية اللفظ كان تركيبها يدل على تناسب التشبيه ويحملنا عمداً على تخيل صورة جديدة، وبلاغته من الناحية الثانية من حيث الابتكار وما تحدّثه صورة من أثر في نفوس سامعيه فخرجت استعارات الإمام □ حاملة لكل الخصائص الفنية التي تتميز بها الاستعارات الصائبة من⁽³⁶¹⁾:

- ١- الانتقال بالنص من الجمود اللفظي المجرد إلى السيولة في التعبير والمرونة في الاستعمال.
- ٢- إعطاء صفة الفعل لمن لا يفعل وصفة من يعقل إلى ما لا يعقل.
- ٣- تهويل الأمر، ودقة المبالغة، وشدة الوقع.
- ٤- إن في تعبيراته إشاعة الحياة في الجماد وإضافة الحركة عند الكائنات وكأنها ناطقة تتكلم ومكلفة تتمثل، وقادرة تتصرف.

فقد صحبها ميل إلى النظر العقلي وسبل المنطق وبيّناته فهو يصور فكرته ويستعير لها. وكما يبدو فقد كثّر التصوير بالاستعارة في خطب الحرب وتضمنت ما يربو على الخمس والستين استعارة وقد أخذت الاستعارة المكنية أكثر من الثلاثين استعارة، والسبب يعود، إلى ما أوتي الإمام □ من ملكات ومواهب فضلاً عن نهجه الأسلوب القرآني في تصوير المعنويات والحسيّات، فالاستعارة أقوى إحياءاً من التشبيه لما تتضمنه من سعة الدلالة وقوة التصوير.

⁽³⁵⁷⁾ فن الخطابة: إيليا الحاوي: ١٥٦.

⁽³⁵⁸⁾ في النقد الأدبي: ١٥٠.

⁽³⁵⁹⁾ ظ: الاتقان في علوم القرآن: ٣/ ١٤١.

⁽³⁶⁰⁾ الطراز: ٣/ ٣٣٤.

⁽³⁶¹⁾ ظ: أصول البيان العربي: ٩٤.

المبحث الرابع

الكناية والتعريض

الكناية:

تعدّ الكناية ركناً من أركان البيان، فلها من الأثر ما للتشبيه والاستعارة، وبها تبرز المعاني المعقولة في صورة المحسوسات، وبذلك تكشف عن معانيها وتوضحها وتبينها وتحدث انفعالاً تعجز اللغة الاعتيادية عن تصويره. ولا يكاد يخلو أثر من الآثار النقدية والأدبية من الكلام عن الكناية وبلاغتها⁽³⁶²⁾، وإن اختلفت بينهم أسماؤها والقباه وأقسامها وإن لم تبتعد عن معناها وهو "أن تتكلم بالشيء وتريد غيره..."⁽³⁶³⁾ أي إنك تطلق اللفظ ولا تريد به ظاهره، ولكنك تريد به معنى آخر يتبعه ويسايره في الإرادة والاداء. وقد تبلور تعريف الكناية على يد عبد القاهر الجرجاني قائلاً: "أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه"⁽³⁶⁴⁾.

و"على هذا تنصدر الكناية مرتبة متميزة في كيان البيان العربي، فالتعبير بالكناية له منزلة التصوير بالاستعارة، فكل منهما يصدر عن ذائقة فنية، وقيمة بلاغية تتعلق بفن القول"⁽³⁶⁵⁾، فاذا نظرنا إلى الكناية وجدنا حقيقتها أنها اثبات لمعنى نحن نعرفه من طريق العقل، والنظر، دون طريق اللفظ، فهي تعبير عن معانٍ بالفاظ يعبر بها عن معانٍ آخر، ولكن لتلك المعاني الجديدة صلة ولزوماً بالمعاني الأصلية، وبإدراكها يمكن التوصل إلى المعاني الحقيقية التي هي غاية الكلام فـ"الصورة الكنائية تولد اقناعاً أكبر بالمعنى الذي تشير إليه بتوكيده وتقريره في نفس السامع؛ لأن النفس يكون تقبلها للمعاني أسرع، وأكد مشفوعة بالشاهد والدليل"⁽³⁶⁶⁾ وذلك أبلغ في إثباتها بنفسها. فالكناية أسلوب تزيده المبالغة حسناً، لانه يقرب الفكرة المجردة من الصور المحسنة، فتستحيل المبالغة فيه بلاغة، والإرادة معنى جديداً، وبذلك يمتزج الأثر البياني بالاحساس الداخلي عند المتكلم، ليقدّم للمتلقى ما تعبر عنه النفس من مشاعر كامنة، لم يصرح بها تصريحاً، بل لمح إليها تلميحاً ولهذا قيل: "الكناية أبلغ من التصريح"⁽³⁶⁷⁾. و"لعل أسلوب الكناية من بين أساليب البيان هو الأسلوب الوحيد الذي يستطيع به المرء أن يتجنب التصريح بالعبارات المستهجنة التي تدخل في دائرة الكلام... إذن. اللغة المهذبة في الكناية مصدر إيحائي من مصادر الفكر العربي والقرآني"⁽³⁶⁸⁾.

وقد جاءت الكناية في خطب الحرب للإمام □ زاهرة بالحياة والتصوير الفني، فقد اختار من الألفاظ والعبارات ما يرى فيها قوة ووضوحاً وجمالاً ليجسد المعاني والأفكار التي يريدها □ لتفعل فعلها في نفوس أصحابه وخصومه على السواء.

فمن أقواله □ في خطبه الحربية التي كان للكناية فيها دور بارز في التعبير عما يدور في فكره □ في حث أصحابه على القتال، منها قوله لأبنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل، قال:

"تَرْوُلُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ، عَضُّ عَلَى نَاجِذِكَ، أَعْرِ اللَّهَ جُمُجُمَتَكَ، تَدُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ"⁽³⁶⁹⁾

كرر الإمام □ استعماله لعبارة "عض على ناجذك" في حث أصحابه على القتال في خطب الحرب⁽³⁷⁰⁾، لـ"إن

(٣٦٢) ظ: كتاب الصناعتين: ٣٨١، العمدة: ١/ ٣٠٢، دلائل الاعجاز: ٤٥، المثل السائر: ٣/

٤٩

(٣٦٣) لسان العرب: مادة (كنو).

(٣٦٤) دلائل الاعجاز: ٤٥.

(٣٦٥) أصول البيان العربي: ١١٣.

(٣٦٦) دلائل الاعجاز: ٢٠١.

(٣٦٧) دلائل الاعجاز: ٤٨.

(٣٦٨) أصول البيان العربي: ١١٤.

(٣٦٩) نهج البلاغة: ١/ ٤٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١/ ٢٤١.

(٣٧٠) ظ: م.ن: ١/ ١١٤، ٢٣٦.

العاَضُ على نواجذه- الاضراس- ينبو السيف عن دماغه، لأن عظام الرأس تشد وتصلب⁽³⁷¹⁾، فهي كناية عن الحمية⁽³⁷²⁾، فضلاً عما توحيه هذه الصورة من بث الخوف والرعب في نفوس الاعداء عند المواجهة، وتشد النفس إلى الهمة والأصرار، وتدعو بالمرء إلى الاقدام والافتحام وانتزاع ملحظ الخوف ذاتياً، أي أن الضغط على الاضراس مما يؤكد العزيمة والمضي إلى الهدف المراد.

وكذلك قوله □ "تد في الأرض قدمك" أي اجعلها كالوند وهي كناية عن الثبات، فهذه الكلمات بدت وكأنها؛ محاطة بهالة توسع من معناها وتأثيرها فـ "عض على ناجذك، وتد في الأرض قدمك" بدت أقوى من غيرها أثراً في الدلالة على الشجاعة والثبات وأصبحت مع باقي الكلمات كأنها دليل قاطعتها أو قائد ركبها⁽³⁷³⁾.

غاية ما يسعى الإمام □ إلى تحقيقه من الكناية هو التأثير والاقناع، بالفكرة أو بصدق الاحساس حتى تكون مشاركة أصحابه له بعد اقتناعهم وتأثرهم، فمن الابعاد النفسية المهمة للصورة الكنائية عند الإمام □ هي الهيمنة على أصحابه عن طريق تأكيد المعنى المراد تقريره- وهو حثهم على القتال - في نفسه للتلازم بينه وبين ما يدل عليه ظاهر اللفظ.

ومن خطبة أخرى للإمام □ في المعنى نفسه في حث أصحابه على القتال في بعض أيام صفين، قال:
"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلَّبَّوْا السَّكِينَةَ، وَعَظُّوْا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ
أَنْبَى لِلْسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَأَكْمَلُوا اللَّامَةَ وَقَلَّلُوا السُّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحَظُّوْا
الْخَزَرَ"⁽³⁷⁴⁾

لقد وردت في النص ثلاث كنايات متتالية وهن "عضوا على النواجذ" و"فانه انبى للسيوف عن الهام" و"الخطوا الخزر"، فقد جاءت "بطريقة اللفظ المركب، ومن ثم كانت شديدة المناسبة واضحة الشبيهة عكس ما إذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمثابرة"⁽³⁷⁵⁾. فالكلام السابق ليس على حقيقته مع جواز وروده على حقيقته فالإمام □ فيها بالقدر الذي يريد فيه نقل أصحابه إلى المعنى البعيد الذي من أجله صاغ الصورة الكنائية، يريد أن يبقي على احتمال ارادة المعنى الأول الذي يدل على ظاهر اللفظ، ومن أجل الابقاء على هذا الاحتمال ولكي يكون وارداً فانه يسقط من الأساس القرينة التي تمنع من ارادة المعنى الظاهري ليبقى على احتمال ارادة كل من المعنيين⁽³⁷⁶⁾.

وقوله □ "قلقلوا السيوف" يعني فيها سهولة جذب السيوف حال الحاجة إليها، فان طول مكثها في الاغمار يوجب صداها وصعوبة مخرجها حال الحاجة، وهي صورة المقاتل الذي يبغى حسم امر قلقه.

وقوله □ "الخطوا الخزر" هو "نظر الانسان بعينه، وكأنه ينظر بمؤخرها"⁽³⁷⁷⁾، وهي علامة الغضب للحق، فما أراده الإمام □ هو ثبات أصحابه في ميدان الحرب، فكانه يلجأ إلى الصرامة فلا يحاور، ولا يداور، بل يعمد إلى الفكرة فيلقي بها في وضوح، كما نجد ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها، وهي جارية على قوانين اللغة، سليمة من التناثر، فالصورة الكنائية مع الاستعارة - استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة- تضافرت في بيان مراد الإمام □ وحينما اجتمعت هذه الصفات مع تلك أعطت بالتالي حقيقة ناصعة لوضع أصحاب الإمام □.

فالكناية هنا جعلت المعنى الذي أراده الإمام □ أوقع في نفوس أصحابه واقدر على أحداث الاستجابة. ومن كلام آخر للإمام □ في حث أصحابه على القتال من خطبة أخرى في المعركة نفسها- صفين - قال:
"وَقَدْ رَأَيْتُ جَوَلْتَكُمْ، وَأَنْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ"⁽³⁷⁸⁾

وهذه لمحة مشرقة عبر عنها الإمام □ بالكناية عن الاضطراب وعدم الثبات بالحرب، والفرار عند الزحف، فأجمل في اللفظ وكنى عن اللفظ المنفر عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه وكما هو معلوم أن "الصفة إذا لم تأت مصرحاً

(٣٧١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١ / ٢٤١.

(٣٧٢) ظ: نهج البلاغة: ١ / ٤٣.

(٣٧٣) ظ: الاصول الفنية للأدب: ٥٨.

(٣٧٤) نهج البلاغة: ١ / ١١٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٥ / ١٦٩.

(٣٧٥) المثل السائر: ٣ / ٥٩.

(٣٧٦) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٢٩.

(٣٧٧) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٥ / ١٦٩.

(٣٧٨) نهج البلاغة: ١ / ٢٠٥، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٧ / ١٧٩.

بذكرها، مكشوفاً عن وجهها ولكن مدلولاً عليها بغيرها، وذلك أفخم لشأنها، والطف لمكانها، كذلك اثباتك الصفة للشيء إذا لم تلقه إلى السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والاشارة كان له من الفضل والمزية ومن الحسن والرونق ما لا يقل قليلاً ولا يجهل موضع الفضيلة فيه⁽³⁷⁹⁾، وهذا ما اعتمد عليه الإمام □ في الكناية، فلو جاء تعبيره عن الهرب مصرحاً به لولد الجو النفسي الذي يوحيه التصريح بها في نفس أصحابه انفعالاً منفراً للأنطباعات المرتكزة في ذهنهم عنها، وكأنه □ عمد إلى التسمي والترفع في الصورة الكنائية من أجل خلق جو نفسي إيحائي خاص عند أصحابه فالدلالة الإيحائية الجديدة للكناية تختلف عن الدلالة الإيحائية التي يخلقها التعبير المباشر⁽³⁸⁰⁾.

ومن الخطبة ذاتها بقوله □ في المعنى نفسه أيضاً:
"وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَأْفِيحُ الشَّرَفِ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسِّنَامُ الْأَعْظَمُ"⁽³⁸¹⁾
 أراد □ أن يكني عن المنزلة والمكانة المتقدمة لأصحابه بعد أن كنى فرارهم من ميدان القتال، عاد بهم إلى مكانة العرب، فهم أهل الشجاعة والبطولة فبدت "هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف... وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفلق والخطيب المصقع"⁽³⁸²⁾.

لقد ولدت هذه الصورة اقناعاً أكبر بالمعنى الذي تشير إليه بتوكيده، وتقديره في نفوس أصحابه بأنهم أصحاب ماض مشرف في البطولة والشجاعة، فكانت دلالة الكناية، معنوية عقلية⁽³⁸³⁾.
 ويبقى □ موظفاً للكناية في المعنى نفسه في حث أصحابه على القتال، والجهاد في سبيل نصره الحق، إذ قال:

"فَسُدُّوا عَقْدَ الْمَآزِرِ، وَاطُّوْا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ"⁽³⁸⁴⁾
 وهذه العبارة من أبلغ عبارات التحريض على القتال والنضال فالمرء إذا شد عقد أزاره، فمعنى ذلك انه قد شمر للحرب تشميراً، مبتعداً عن العثار، ومجدداً في المسيرة، ومسرعاً في المشي "فضلاً عن أنه أمن من إنحلالها فيمضي في قتاله غير خائف"³⁸⁵.

وقوله "اطُّوْا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ" يصور □ "ما فضل من مآزركم يلتف على أقدامكم فاطووه حتى تخفوا في العمل ولا يعوقكم شيء عن الاسراع في عملكم"⁽³⁸⁶⁾.
 فالكناية هنا أعطت صورة الجد في العمل والتأهب والأسراع في مضمار الجهاد من الحق المفضي إلى الفوز والنصر الأكيد.

ومنه أيضاً قوله □ من خطبته في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه؛ قال:
"وَوَتَّبُوا عَلَى شِيْعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا، وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ"⁽³⁸⁷⁾

العض على الأسياف ليس حقيقة، وإنما هو صورة عن ملازمة أصحابه للضرب بها من أجل الحق فهي كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة، شبه قبضهم على السيوف بالعض⁽³⁸⁸⁾، والسبب في اختياره □ لهذه الصورة هو المبالغة في صبرهم وثباتهم في الحرب، وجاءت الكناية هنا لتدل على شكوى الإمام □ ممن أرادوا القضاء عليه فصور أصحابه - شيعته - منهم من قتل غدرًا وجاء بالكناية لكي يفخم من صورة الطائفة الثانية ممن تمسكوا بأسيافهم حتى قتلوا ولقوا الله صادقين.

-
- (³⁷⁹) دلائل الاعجاز: ٢٠١.
 (³⁸⁰) ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٣٣.
 (³⁸¹) نهج البلاغة: ٢٠٥ / ١، ٢٠٦.
 (³⁸²) دلائل الاعجاز: ٢٠١.
 (³⁸³) ظ: م.ن: ٢٧٩.
 (³⁸⁴) نهج البلاغة: ٢ / ٢٣٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١١ / ١٤٢.
 (³⁸⁵) م.ن: ٢ / ٢٣٤.
 (³⁸⁶) م.ن: ٢ / ٢٣٤.
 (³⁸⁷) نهج البلاغة: ٢ / ٢٠٣، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١١ / ١٢١.
 (³⁸⁸) ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١١ / ١٢١.

ومن المعاني الأخرى التي جاء الإمام □ بها هي العتاب والتقريع في أصحابه فكانت الكناية خير ما عبر به الإمام □ عن هذا المعنى.

فمن خطبة له □ في استنفار الناس إلى أهل الشام، قوله:
"إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوَّكُمْ، دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي عَمْرَةٍ، وَمِنَ الدُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ" (389)

قصد الإمام □ من "دوران الاعين اضطرابها من الجزع، ومن غمره الموت يدور بصره فانهم يريدون من غمرة الموت الشدة التي تنتهي إليه" (390) فقلق العينين استجابة حقيقية لما يخاف منه الانسان، فقد وظف الإمام □ الكناية في تصوير ما في نفوس بعض أصحابه من الخوف والتقاعس عن القتال من أجل نصرته الحق، فلم يصرح الإمام □ عما يدور في دواخل أصحابه من هلع وخوف فجاء بالكناية حتى تظهر الحقيقة ولكن بأطار من العتاب كونهم من أصحابه.

وقد كرر الإمام □ عتابه وتقريعه بصورة كنائية أخرى من الخطبة نفسها، قال:
"وَمَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَحِيسٍ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالٍ بِكُمْ، وَلَا زَوَافِرٍ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ" (391)

قصد الإمام □ بأن أصحابه ليسوا ممن يستند عليهم ويمال بهم على العدو بما يمتلكون من عزة وقوة، فالكلام كناية عن عدم الاتكال عليهم لضعفهم وذلتهم، فالكناية عنده □ "ليست مجرد فكرة أداء معنى بالفاظ لا تدل على ظاهر مدلولها، وإنما هي صياغة فكرة تنبع من وجدان صاحبها- الإمام □- فتتماسك الفاظها وتتسق تعبيراً لكل لفظ منه مكانه ووشيجته التي تربطه بما أتى قبله وبما يردد بعده، فيومض بالمعاني وظلال المعاني والاحاسيس ايماضاً لو تزعزع ذلك اللفظ أو سواه عن موقعه لعجز التعبير كله عن أداء مهمته البلاغية" (392)

عمد الإمام □ إلى استعمال الكناية فيمن خالفه الرأي سواء في الخلافة أو الرأي، فمن قوله في خطبته بحق أصحاب الجمل بعد المعركة وهي تحمل في طياتها نقداً و تعريضاً، قال:

"لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ، فَوُقِّصُوا دُونَهُ" (393)

فقد صور □ مناوئهم له في أمر الخلافة، وفشلهم في الوصول إلى الأمر الذي كان يرومون إليه بمن "رفعوا أعناقهم ومدوها لتناول امر وهو مناوأة أمير المؤمنين على الخلافة فوقصوا، أي كسرت أعناقهم دون الوصول إليه" (394)، وسبب توظيف الإمام □ الكناية هنا، لانه وجدها وسيلة من وسائل تحقيق القصد في النيل من الخصم والنكايه به من غير أن تمسه مساً ظاهراً مكشوفاً (395).

ومنه قوله □ من خطبة له في تخويف أهل النهروان، وفيها جاءت الكناية بمعنى التهديد والانذار، قال:
"فَأَنَا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرَعى بِأَتْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ .. وَأَنْتُمْ مَعَاشِيرُ أَخِقَاءِ الْهَامِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ" (396)

قوله □ "اخفاء الهام" كناية عن ضعف عقولهم وقلة مداركهم وأساس استعمال الإمام □ لهذه الصورة هو نفسي

يتمثل في التلميح الى ما كان يبغيه الإمام □ من أنهم سيلقون حتفهم وإن ما أوصلهم إلى ذلك هي قلة مداركهم فيما

(389) نهج البلاغة: ٨٢ / ١ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ١٩٠ / ٢ .

(390) م.ن: ٨٢ / ١ .

(391) نهج البلاغة: ٨٣ / ١ .

(392) البلاغة والتطبيق: ٣٧٩ .

(393) نهج البلاغة: ٢٠٣ / ٢ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٣٠٩ / ٩ .

(394) م.ن: ٢٠٣ / ٢ .

(395) ظ: علم البيان: دراسة تاريخية : ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(396) نهج البلاغة: ٨٦ / ١ ، ٨٧ ، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢٦٥ / ٢ .

يفعلونه، فكان □ ينذرهم من خلف ستار وينقلهم إلى ما ستؤول إليه نهاية أمرهم نقلاً رقيقاً مؤدباً⁽³⁹⁷⁾، ولا اعتبارات نفسية بعضها يرجع إلى الإمام، لمنزلته الرفيعة لا يليق به أن يجري بعض الالفاظ غير مستساغة السمع على لسانه.

كما قال □ في المعنى نفسه لما عزم على حرب الخوارج وقيل له أنهم قد عبروا جسر النهر وان :

"مَصَارِعُهُمْ دُونَ النَّطْفَةِ، وَاللَّهِ لَا يُقِلُّتُ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ"⁽³⁹⁸⁾.

جاءت الكناية في هذا النص لتؤكد معنى التهديد والانذار وقد عني □ بالنطفة هي "ماء النهر، وهي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيراً جداً"⁽³⁹⁹⁾. وهكذا هو الإمام □ يعتمد إلى فك الالفاظ من قيود الاستعمال المألوف، وكنى نهر الفرات بالنطفة أراد أن يوحي لأصحابه بأنه على الرغم من سعة نهر الفرات إلا أنه جاء بلفظة "النطفة" تصغيراً لشأنه وقصد فيها أيضاً تهويل الأمر على الخوارج، فلا يقلت منهم عشرة وهذا ما حدث فعلاً.

ويرتفع مستوى الاداء في الصورة، عندما يشترك في تكوينها أكثر من عنصر بياني، فالكناية تبدو أكثر فاعلية عند انضمامها إلى الاستعارة فتمنح الصورة مزيداً من الايحاء والتأثير.

منها خطبته □ بعد غارة الضحاك صاحب معاوية بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه، ولما جاء فيها من ذم بعض أصحابه من المتخاذلين، قال:

"أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلَامُكُمْ يُوهِي الصَّمَّ الصَّلَابَ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فَيْكُمْ الْأَعْدَاءَ"⁽⁴⁰⁰⁾

جاء □ بالكناية هنا ليبين بأن لأصحابه قوة وشجاعة في الأقوال، وضعفاً في الأفعال فقد جعل □ من مشاركة الاستعارة المكنية مع الكناية عاملاً في إبراز صورة أكثر احياءاً وتأثيراً، فبلاغة كلامهم وتأثيرها في غيرهم يفتت الحجارة الصلبة، فقد أبرز □ المعنى المجرد في صورة محسوسة

ولاشك في إن التعبير بالصورة أقرب إلى النفس واشد إقناعاً من المعنى المجرد، فضلاً عن أيجازه في الأسلوب ف"دلالة الكلمة الواحدة على عدة معان، يحتاج كل معنى فيها إلى التعبير عنه بلفظ خاص والاستعاضة عن هذا

⁽³⁹⁷⁾ ظ: الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٢٣٠.

⁽³⁹⁸⁾ نهج البلاغة: ١٠٧ / ١.

⁽³⁹⁹⁾ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٣ / ٥.

⁽⁴⁰⁰⁾ نهج البلاغة: ٧٣ / ١، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١١٢ / ٢.

التطويل بلفظ الكناية الذي يحمل في طياته العديد من المعاني⁽⁴⁰¹⁾ فاصحابه إذن رجال اقوال لا رجال اعمال وهو ما

يدعو إلى الخيبة والفشل ويمثل الهزيمة قبل الحرب، فهم مهزوزون نفسياً ومتفرون فعلياً.

ومن كلام للإمام □ عندما قتل الخوارج، قيل له يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم، فقال:

"كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّهُمْ نُطِفُّ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَابِينَ"⁽⁴⁰²⁾

نلاحظ في هذا النص أن الكناية قد تأزرت مع التشبيه ومنحت الصورة القدرة على المزيد من الإيحاء، فضلاً عن نقلها أدق تفاصيل الحالة الشعورية التي كان يمر بها الإمام □ فـ"يغدو: هو الذات وهو الموضوع في آن معاً وبهذا الانفعال- الداخلي- يحل فيها وراء الأشياء، لأنه يضيئها ويدعها تنق وتتحرك وتخفق بالحياة"⁽⁴⁰³⁾

جاء التشبيه البليغ حين شبه الخوارج - لما قيل له قتلوا جميعاً- بالنطف، وقد أراد □ بتلك انهم سيظهرون بعده ومن بعد ذلك جاء بالكناية مساندة للتشبيه فقد كنى □ بالقرارات عن الارحام التي تستقر بها تلك النطف، أي أن مذهب الخوارج سوف يجد اتباعاً وأنصاراً وإن النساء سوف يلدن الكثير من أمثالهم، فلهذه الصورة الكنائية الممزوجة بالتشبيه تأثير في نفس أصحابه لأن "الاثبات بها مزية لا تكون للتصريح، وإن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد على وجودها أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء هكذا ساذجاً غفلاً، وذلك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والاخر ظاهراً معروفاً وبحث لاشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط"⁽⁴⁰⁴⁾

ومن جانب آخر نجد □ يوظف التعريض في بعض نصوص خطبه "فهو أعلى في محاسن الاخلاق وأقرب للقبول وأدعى للتواضع"⁽⁴⁰⁵⁾، والتعريض أخفى من الكناية لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا الوضع الحقيقي ولا المجازي⁽⁴⁰⁶⁾ ومن أحسن ما جاء في التعريض قوله □ مخاطباً أصحابه بعد ليلة الهرير، وجاء في معنى العتاب والتوبيخ، قال:

"أَيُّنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْقِتَالِ فَوَلَّوْهُا وَلَهُ اللَّفَّاحُ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحَفًا زَحَفًا، وَصَفًا صَفًا."⁽⁴⁰⁷⁾

هذا الكلام أخرجه الإمام □ مخرج التعريض بأصحابه، فإشار إلى المسلمين الاوائل بعد أن قبلوا الاسلام وأحكموا القرآن، قادهم ذلك الايمان إلى عشق القتال من أجل نصره الحق فشرقوا وغربوا زاحفين صفوفاً، أما أصحابه □ فهم مسلمون ويقرأون القرآن لكنهم لم يكونوا كأولئك الاوائل، لم ينقادوا لأمره، ولا أستمعوا لقوله، وكان الإمام □ استعمله للتلويح بغيره، كي يحاول أن يحرك ما بداخل أصحابه نتيجة تقاعسهم، وفي الوقت ذاته يحاول التلطف بهم فيحترز عن المخاشنة في الكلام فيسمعهم الحق على وجه يمنع غضبهم.

ومن قوله □ في التعريض ايضاً يخاطب أصحابه في ساحة الحرب، وفيها يحثهم على القتال فيقول:

"إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ، لَا يَقُوُّهُ الْمُؤَيَّمُ وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ، إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِائَةِ عَلَى الْفَرَّاشِ"⁽⁴⁰⁸⁾

هذا الكلام جاء في معرض تقرير حقيقة الموت الذي يخشاه أصحابه، فيؤكد لهم بان الموت يدرك كل الناس

(٤٠١) القرآن والصورة البيانية: ٢٣٥.

(٤٠٢) نهج البلاغة: ١/ ١٠٨، ١٠٧.

(٤٠٣) في النقد والأدب: ٢/ ٢٠.

(٤٠٤) دلائل الاعجاز: ٤٩.

(٤٠٥) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٣١٣.

(٤٠٦) ظ: البلاغة العربية: ٢٤٤.

(٤٠٧) نهج البلاغة ١/ ٢٣٤، ظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد : ٧/ ٢٩٥.

(٤٠٨) م.ن: ٢/ ٢.

عموماً ولا ينجو منه أحد، ومن هنا فإن الفرار من القتال مخافة الموت عار في الاعقاب لذا نجده □ يتمنى الف ضربة بالسيف على ان لا يموت على فراشه فهو مدرك تماماً عاقبة من يقتل في سبيل نصرته الحق عند الله عز وجل.

فالامام □ يذكر أن أكرم الموت القتل ويلوح به إلى ما ليس من معناه، فيعتمد إلى "التحرر من القيود التي تقل التفكير وتقف به عند حدود النظرات المباشرة للأشياء من زاوية واحدة" (409)

نفهم من كل ما سبق ذكره بان الكناية والتعريض عند الإمام □ (410) قد تضافرت فيهما كل الحواس والملكات، ومن ثم ربط بينهما، ليثير العواطف الاخلاقية والمعاني الفكرية، لبيان حقائق الأشياء، ومهما يكن للحقائق والمعاني من شأن فإن اللغة التي تصاغ فيها أثراً في حسن الابانة "وإن كانت في الظاهر هي الكلمات، ولكنها تنطوي على كثير مما يثير الحواس الظاهرة والباطنة وفيها الوان شتى من التعبير، فمنها ما يكون قائماً ومنها ما يكون مضيقاً، ومنها الشفاف أو المعتم، وفيها الرخو أو الصلب، ومنها الحسي الصامت ومنها ما يشع الهاماً روحياً وروحياً وجدانياً" (411)، وما لمسنه وأدركناه من كنايات الإمام □ ما هي إلا منفذ للخروج من الجو الفكري المألوف أو الميدان الحسي الرتيب الذي تواضع عليه الناس، فهي "تحقق أهدافاً لغوية وفنية وفكرية" (412).

كما نجد ان الإمام علي □ قد أعطى المعنى الصحيح لشرط البلاغة وهو "ان يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه، متمكناً في دلالاته، مستقلاً بواسطته يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك اليه أبين إشارة حتى يخيّل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ، وذلك لقلة الكلفة فيه عليك وسرعة وصوله إليك" (413).

(٤٠٩) الأصول الفنية للأدب: ١٧٦.

(٤١٠) ظ: نهج البلاغة: ١/ ٣٠، ٦٧، ٦٩، ٨٣، ٨٨، ٩٧، ١٥٥، ١٠٧، ١١٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢/ ٢٠، ٢١، ٢٢، ٨٢، ٨٤،

٨٥.

(٤١١) الأصول الفنية للأدب : ٥٩.

(٤١٢) البلاغة والتطبيق: ٣٧٨.

(٤١٣) دلائل الاعجاز: ١٧٧.

الفصل الثالث

المبحث الأول

الوظيفة النفسية

الوظيفة النفسية :

تمتاز الخطابة في عصر صدر الاسلام، بصفاء الاسلوب ومتانته، وقوة التأثير، ووصوله إلى قرارة النفوس، وامتلاكه للشعور والوجدان، وان من اهداف أي خطيب التأثير النفسي في نفوس السامعين، كي يحقق الهدف من خطبته، خاصة في خطب الحرب التي يجنح فيها اصحابها إلى الابتعاد عن الافكار المحضة، حيث يمزجون بينها وبين غيرها من العناصر.

والوظيفة النفسية: (تعنى بمجموعة الانفعالات التي تؤثر في النفس وتسيطر على القوى الشعورية عند الانسان، فهي تسرح في اعماقه وتشدد نحو سريره، فتدعو إلى التبشير تارة وإلى التحذير أخرى، فهي مقياس التأثير النفسي والتجاوب الداخلي عكساً وطرداً، وقد كان الامل والخوف والرغبة والرهبة مجالاً لابعادها الموضوعية)^(٤١٤). جاء الإمام □ في خطبه الحربية بكل ما يثير في النفس انفعالاً ويثير لها حالاً من تعجب أو تهويل أو تشويق، فيأتي التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية في الموقع المناسب لكل منها ومن ثم يكسبها تأثيراً أكبر، من حيث موقعها في الكلام وحسب وجودها الذهني في النفس.

كان الإمام علي □ يعرف نفسية سامعيه وعقليتهم، فسلك المسالك الموصلة إلى اقناعهم واستثارتهم والتصرف في مشاعرهم ((اذ من الطبيعي ان يراعي في الكلام نفسية المخاطب ومستوى ادراكه وظروف الخطاب حتى يستطيع الكلام ان يؤدي دوره المطلوب في التأثير))^(٤١٥).

قد عرف □ كيف يتخير الكلام المناسب في اللحظة المناسبة، وكيف يجب ان ينفعل حين يقتضي الموقف الانفعال، فمن خطبته □ في حث اصحابه على القتال في بعض أيام صفين، محاولاً شد أزرها بأعطائهم ابلغ الدروس العسكرية من اجل النصر، معتمداً على اثاره عواطفهم واشعال مشاعرهم، قال:

"مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ، وَتَجَلَّبَّوْا السَّكِينَةَ، وَعَاصُوا عَلَى التَّوَاجِدِ، فَإِنَّهُ أُنْبِئَ لِلْسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَأَكْمَلُوا الْأَلَمَةَ، وَقَلَّبُوا السُّيُوفَ فِي أَعْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا، وَالْحَظُّوا الْخَزَرَ، وَأَطْعَمُوا الشَّرَرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا، وَصَلُّوا السُّيُوفَ بِالْخُطَا، وَعَلِّمُوا أَنْكُمْ بَعِينَ اللَّهِ" (٤١٦)

لا بد أن الإمام □ رأى من أصحابه اقبالاً وإنصاتاً لقوله ومن ثم زادهم من الدروس العسكرية على مقدار احتمالهم ونشاطهم، فلو تبين منهم ثقلاً عن استماع قوله لخفف عنهم، فقد كانت خطبه □ ((في تربية النفوس، اخلاقياً، وتغذية الروح المعنوية بالقيم الانسانية الرفيعة))^(٤١٧). كثرت الاستعمالات البيانية التي بدا فيها الإمام موقفاً كل التوفيق، فجاءت عناصر البيان ممتزجة مع التجربة الشعورية ومعبرة عنها.

كل الاوصاف التي رسمها الإمام □ لاصحابه تهدف إلى تحفيزهم من الناحية النفسية، فقد سخر □ الاستعارة - المكنية - لخلق علاقة بين ملازمة الخشية للثقة كما يلزم الشعار الجلد، وملازمة السكينة للبدن كالجلباب، فقد اختار الإمام اللفظ المناسب ليعبر عن تلك العلاقة، ومن ثم جاء □ بالكناية ليكمل ما يريد التأثير به على اصحابه، وكأنه يرى في عناصر الأداء البياني مرتكزاً للتعبير عن ما يريد الإمام معالجته. فر((العض على النواجذ)) يغير ملامح وجه الانسان فيبدو امام خصمه ذا قوة وجلد وفي الوقت نفسه يزيد في مقاومة هامة الانسان للضرب، فجاءت الكناية هنا معبرة عن الثبات والصلابة، وتستمر نصائح الإمام بفنون القتال بقوله "قلقلوا السيف في اغمارها قبل سلبها" هي دعوة إلى اشاعة صوت مدو وسط جيشه، فكانه □ يشد هم المقاتلين كي يتصدوا لعدوهم. وما من شك ان "لحظ الخزر" وهو النظر بمؤخر العين، يثير الخوف في نفوس الخصوم، ويظهر بمظهر غير المبالي بهم. وبعد ان يوصي اصحابه □ بهذه الوصايا يعود الإمام ليطمئن اصحابه، فالامام يتدرج في استثارة العواطف فهو يطور الفكرة والعاطفة، والصورة حتى يبلغ قمة التوضيح.

جاءت الاستعارة المتأزرة مع الكناية بقوله □ ((انكم بعين الله)) أي ان اصحابه في رعاية الله وحفظه سبحانه وتعالى وكان هذه الإشارة تزيد من استعدادهم للقتال.

ومن كلام آخر للإمام □ لابنه محمد بن الحنفية لما اعطاه الراية يوم الجمل، بحث فيه على القتال، قال: "تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُّ، عَضُّ عَلَى نَاجِيكَ، أَعْرِ اللَّهَ جُمُوعَكَ، تَدُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ، ارْمِ بِبَصْرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وَغَضُّ بَصْرِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ"^(٤١٨) كلام ذو جوانب نفسية متعددة، اذ يوصي الإمام □ ابنه، بأن يكون صلباً عند القتال وثابتاً فيه، وذلك عن

^(٤١٤) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٨٥.

^(٤١٥) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: ٧٦.

^(٤١٦) نهج البلاغة: ١/ ١١٤، ١١٥.

^(٤١٧) الأدب وفنونه: محمد مندور: ١٧٠.

^(٤١٨) نهج البلاغة: ١/ ٤٣، ٤٤.

طريق ((العض على النواجز)) وان يكون مستعداً لاستقبال الموت ولقاء الشهادة، وهو إنما يصنع ذلك فلأنه وهب نفسه لله، واعاره حياته كلها، وقد عبّر عن ذلك بقوله البليغ الناصع في الاعارة لأنفس ما يملك "أعر الله جمجمتك" ويسند ذلك بتعبير بلاغي آخر يوحى بمدى الثبات والاستقرار. والالتصاق بموطن القتال لا يزول عنه، ولا يتزلزل فيه، وهو قوله "تدّ في الأرض قدمك" فلا تفكر بالترجع أو الانسحاب و "ارم ببصرك أقصى القوم" يعني ملاحظتك لجميع حركاتهم، حتى تكون على علم بكل ما يجري، ومن ثم كف بصرك عما تخافه، فأن النصر من عند الباري عز وجل.

كلام الإمام هذا يوحى بصورتين تؤثران في النفس الاولى: بث ابلغ الدروس العسكرية، فضلاً عن استلهاهم الروح المعنوية من هذه الالفاظ الحماسية، أما الصورة الثانية: فهي نتيجة ما بثه الإمام □ في نفس ابنه محمد بن الحنفية، لما توحىه تعاليمه تلك من بث الخوف والرعب في نفوس الاعداء عند المواجهة.

ومن خطبة أخرى قال □ وهو لا يزال يحثهم على القتال ويعلمهم بأن يكونوا على أهبة الاستعداد واليقظة لما تتطلبه ساعة الحرب، فقال:

"شُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ" (٤١٩)

وردت الصور البيانية -الكنائية- من اجل الايضاح، فعلى أصحاب الإمام التأهب، والاسراع، من اجل الفوز بالنصر المفضي إلى الحق، وكما هو معلوم، ان ((الخطابة في جوهر اسلوبها، تعتمد إلى بث حالة نفسية او يقين وجداني حاسم)) (٤٢٠) إلى ما ستؤول إليه الامور.

مرة أخرى يحث الإمام علي □ اصحابه على القتال، من خطبته في بعض ايام صفين، اذ قال:

"وَلَقَدْ شَفَى وَحَاوَحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخْرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُواكُمْ وَتُرِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ. حَسًّا بِالنَّصَالِ وَشَجَرًا بِالرَّمَاكِ تَرْكَبُ أَوْلَاهُمْ أَخْرَاهُمْ، كَالْإِبِلِ الْهَيْمِ الْمَطْرُودَةِ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا" (٤٢١)

قد شبه □ اعراب الشام في صفين، بالابل العطاش التي طردت عن حياض الماء، يريد بذلك تزامهم في الفرار، فلا يدرون ما يفعلون، وكنى عن ذلك بقوله □ "تركب اولاهم اخراهم" فقد تآزر كل من التشبيه والكنائية لأجل الاثارة النفسية، ومن ثم شحذ همهم حتى النصر فالامام ((لايكتفي بالاقناع عن طريق القول بل من واجبه ان يصل إلى القلب فيقتنع عن طريق اليقين)) (٤٢٢).

ومن طرق الامام □ في استنهاض همم اصحابه وعزائمهم في خوض غمار الحرب. عندما يرى اصحابه في حالة يأس في ساحة الحرب اي عرف نفسيتهم، يعتمد إلى شد أزهرهم، ومن ثم يصل إلى مواضع التأثير في نفوسهم، وان يحملهم على الهدف الذي ينشده في غير عسرة عليه ولا جماح منهم، منها قوله □ في الخطبة الانفة الذكر، اذ قال:

"وَقَدْ رَأَيْتُ جَوَلْتَكُمْ، وَانْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ... وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَيَافِيخُ الشَّرَفِ، وَالْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ" (٤٢٣)

جاء الإمام □ ، بالكنائيات المتتالية قاصداً غرض معين يسعى إلى تحقيقه، فقال "جولتكم" ويقصد فيها عودتهم بعد الهزيمة، و"انحيازكم عن صفوفكم" أي فراركم من ميدان القتال، يحاول الإمام ان يعوض عن الالفاظ الحقيقية بالفاظ مجازية اخرى، ممكن ان تنثير نفوسهم أكثر من ذكر الالفاظ الحقيقية، فجاءت الكناية موافقة لنفسياتهم المنكسرة، ومن ثم يحاول ان يرفع من شأنهم ويثير في دواخلهم تاريخ اباثهم واجدادهم، فينعثهم بنعوت الشرف العالي والمجد الرفيع بقوله "انتم لها ميم العرب ويأفيخ الشرف والانف المقدم، والسنام الأعظم".

ومن المعنى نفسه من خطبة اخرى بعد ليلة الهرير، اذ قال فيها الإمام □.

"إِنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَاجُوا إِلَى الْقِتَالِ،

(٤١٩) نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٤.

(٤٢٠) الخطب والمواظ: ٢٠.

(٤٢١) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٦.

(٤٢٢) نظرية الانواع الأدبية: ٣٨٤.

(٤٢٣) نهج البلاغة: ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.

فَوَلَّيْهُمُ أُولَئِكَ الْقُلُوبَ إِلَى أَوْلَادِهَا^(٤٢٤)

تشبيه تمثيلي، يحاول الإمام □ ان يعاتب اصحابه ويقرعهم وذلك تذكيرهم بأصحاب الرسول □ ومن ثم المقارنة معهم، في حالة دعوة اصحابه للجهاد، فيشبه حبه للقتال بوله اللقاح^(*) إلى اولادها اذا فارقتها. ومن أقوال الإمام □ في عتاب وتقريع اصحابه، نراه يرميهم في الجبن، محاولة منه في تأجيج روح الحماسة في نفوسهم ومن ثم يطلب منهم الاقدام السريع في الحرب، قال:

"وَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُثُونَ كَشْيَشَ الضَّبَابِ، لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْمًا"^(٤٢٥)

تشبيه بليغ، فقد شبه □ حال ازدحام اصحابه عند الفرار من المعركة، بحال الضباب المتراكم، فالإمام يقرع اصحابه بالجبن والفشل و «غرض الإمام من هذا هو التقريع بالجبن والتخاذل، والحث على الثبات والتعاون»^(٤٢٦)، ثم يعود فيؤكد جبنهم وخوفهم بقوله □ "لا تأخذون حقاً ولا تمنعون ضيماً" وهي نعوت في غاية ما يكون من الذل. اعتمد الامام، التشبيه البليغ لينقل ما يجيش في نفسه، أملاً ان يحدث الاستجابة المناسبة، يريد به □ ان يثير الانفعال اللازم داخل اصحابه، كي يتخذوا الموقف المناسب في اللحظة المناسبة.

أن «الباعث الأول لخطب الإمام هو الانفعال الذي توحدت فيه ذاته، وموضوعه ونفخت فيه من غيظها، ونقمتها وسودائها، حيناً ومما اشرق لها خلال التأمل والتفكير حيناً آخر»^(٤٢٧).

مرة أخرى يحاول الإمام □ ان يوظف عناصر الأداء البياني حتى يهذب نفوس اصحابه، وبهزهم هزاً عنيفاً بوقت واحد، وكلاهما مبعث نفسي متطور: تهذيب النفوس، وهز الارواح، مما يثير كوامن النفس، وعواطف الضمائر، وهو يعد دليل غضبه من تخاذلهم وتواكلهم وجبنهم، وصياغة ذلك بالتأنيب مرة، وبالعتاب الممض مرة اخرى، فيقول:

"أَفُؤْمِكُمْ عُذُوَّةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةَ كَظْهَرِ الْحَنِيَّةِ، عَجَزَ الْمُقُومُ وَأَعْضَلَ الْمُقُومُ"^(٤٢٨)

اعتمد الإمام □ هذه المرة التشبيه التمثيلي، وسيلة لبيان حال اصحابه من المتقاعسين عن القتال، ويشير بذلك إلى عدم صلاحهم على الرغم من مواظبه ونصحه لهم.

ومن الخطبة نفسها يكرر الإمام □ المعنى، فالتكرار زيادة في التوكيد والتأثير، معاً، فيقول:

"لَوِذْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَ فَنِي بَكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدَّرْهِمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِئْثَمٍ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ"^(٤٢٩)

وهذا التناغم بين التشبيه والكناية الواردتين في النص بما فيهما من تكثيف للمعنى، سبباً في اسباغ حيوية وإيحاء واضحين على الصورة، ومن ثم، يؤثران في النفس أروع تأثير، فقد شبه الإمام اصحابه في عدم طاعتهم له، فأراد ان يقلل من شأنهم، فكناهم بالدرهم، وكنى اصحاب معاوية بالدينار، ومقدار الدينار أكثر بكثير من الدرهم.

ويستمر الإمام □ في عتاب وتقريع اصحابه، من خطبته في استنفار الناس إلى اهل الشام، قال:

"وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلَا زَوَافِرٍ عِزٍّ يُفَقَّرُ إِلَيْكُمْ ..."^(٤٣٠)

كلام ليس بالقليل عبر الإمام فيه عن اصحابه، وهو يكرر المعنى ذاته، في عدم الاتكال عليهم لضعفهم وذلتهم. جاء □ بالكناية هنا، معبرة خير تعبير عما يراه الإمام من حال اصحابه، وكلامه هذا يخلب الباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً، ومما جرى بأسلوب الإمام ان يكون مثالياً؛ هو الاخلاص في تصوير ما في نفسه من فكرة او عاطفة.

ومن الخطبة نفسها قال □:

"إِذَا دَعَوْتُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوَّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ، وَمِنَ الدُّهُولِ

^(٤٢٤) نهج البلاغة: ٢٣٤ / ١.

^(*) اللقاح: الناقة الحلوب.

^(٤٢٥) نهج البلاغة: ٢ / ٢.

^(٤٢٦) في ظلال نهج البلاغة: ٢٢٨ / ٢.

^(٤٢٧) فن الخطابة: إيليا الحاوي: ١٥٥.

^(٤٢٨) نهج البلاغة: ١٨٨ / ١.

^(٤٢٩) م.ن: ١٨٨ / ١.

^(٤٣٠) م.ن: ٨٣ / ١.

فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُّ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ، فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَالُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ»^(٤٣١)

"دارت اعينكم" كناية عن صفة عمد الإمام □ إلى استعمالها تعبيراً عن جزعهم واضطرابهم وفيه تصوير دقيق لما في نفوس أهل الكوفة من الخوف والجبن لملاقاة جيش معاوية، ومن ثم ، يأتي □ بالتشبيه البليغ، كوسيلة في بيان عدم اكتراثهم لما حولهم بقوله □ "كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة"، وبعدها جاء الإمام بعنصر آخر من عناصر الاداء البياني وهي الاستعارة بنوعها -التصريحية والمكنية- وهما وسيلتان في مخاطبة العقل من غير التجاء إلى الاستمالة ومخاطبة العواطف وكأنه □ عمد إلى العقل للتأثير النفسي بدلاً من العاطفة. بقوله "يرتج عليكم حواري فتعمهون" فقد قصد الإمام بأن اصحابه لا يعقلون امرأ ولا يهتدون إلى مراده، فقد استعمل □ عمه للدلالة على ان ذلك العمى طبع فيهم.

ومن خطبة اخرى يذم فيها الإمام □ بعض من اصحابه المتقاعسين عن القتال، وذلك عند علمه بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر، اذ قال:

"دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرَجَرْتُمْ جَرَجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ، وَتَنَاقَلْتُمْ تَنَاقُلَ النَّضْوِ الْأَذْبَرِ"»^(٤٣٢)

جاء □ بالتشبيه البليغ كأداة للتعبير عن تردد صوت بعض من اصحابه وحيرتهم لما دعاهم إلى نصر اخوانهم، بجر جرة الجمل المصاب وعبر عن تناقلهم في تلبية تلك الدعوة بتناقل الهزيل من الابل الذي اصيب في دبره، فلا يستطيع النهوض والجامع في ذلك - التشبيه البليغ - كله العجز، فقد نسب اليهم الضعف، وعدم القدرة والخذلان، محاولاً □ ان يحرك همهم، فجاء كلامه مزيج من القوى الشعورية والقوى التعبيرية. وقد ورد الكثير من هذا التشبيه - البليغ - في خطب الإمام □ في تصوير حال بعض من اصحابه المتقاعسين عن القتال^(٤٣٣).

من كلام اخر له □ بعد ليلة الهرير في عتاب وتقريع اصحابه ايضاً، قال:

"إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّ لَكُمْ طُرْفَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دَيْنَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَعَاتِهِ وَنَفَاتِهِ، وَأَقْبِلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاها إِلَيْكُمْ، وَأَعْقِلُواها عَلَى أَنْفُسِكُمْ"»^(٤٣٤)

الإمام □ يحاول هنا ان ينبه اصحابه إلى عاقبة ما سيكون من عدم طاعتهم له، وكأنهم يجعلون من وساوس الشيطان ونفثاته طريق لحل عقد الاسلام التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فالإمام □ لم يشر في هذا النص إلى وجوب طاعته على اصحابه، وانما جعل نصائحه هدية منه اليهم -اصحابه- فعليهم قبولها، لان الهدية تقبل وعليهم ان يفعلوا ذلك، فجاء □ بالاستعارة هنا لتنبيه مداركهم العقلية بالحض النفسي، وقد يحدث استجابة لديهم. كلام اخر يحمل في طياته اللوم والعتب، حاثاً فيه اصحابه على القتال، وفيه ايضاً ألم شديد ولوعة، ملقياً التبعة على المحيطين به، من احدى خطبه، وفيها يصور حالته النفسية، اذ يقول:

"قَاتَلْتُكُمْ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قُلُوبِي قَيْحاً، وَسَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّ عُنْمُونِي نُغْبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً"»^(٤٣٥)

انها الصرخة المدوية في ضمير الزمن، فقد ملأ اصحابه قلبه قيحاً حتى كاد ينفجر، وشحنوا صدره غيظاً، فبث ما فيه شكوى تستعر باللهيب، وتجرع السم الزعاف حتى طفح الكأس بما فيه، وهذه النفثات بما فيها من الأم وشكوى وتفجر عبارة عن ((صورة من صور تفاعل العملية الأدبية مع النفس الانسانية، شعوراً وحساً وفكراً وعاطفة))^(٤٣٦).

الإمام جادٌ بكل تأكيد في تكييف خطبه حسب ما يريد من اشارة في نفوس اصحابه، أو الهاب عواطفهم في حالتي الترغيب والترهيب وهما حالتان متعلقتان بالحس العاطفي، وناظرتان إلى الانفعالات الوجدانية في النفس الانسانية^(٤٣٧).

^(٤٣١) نهج البلاغة : ٨٢، ٨٣.

^(٤٣٢) م.ن: ٩٠ / ١.

^(٤٣٣) ظ.م.ن: ٨٣، ١٠٣، ١٨٩ - ٢٠ / ٢.

^(٤٣٤) نهج البلاغة: ٢٣٥ / ١.

^(٤٣٥) م.ن: ٧٠ / ١.

^(٤٣٦) في الأدب والبيان: ١٦٤.

^(٤٣٧) ظ: مجاز القرآن د: محمد حسين علي الصغير: ٩٤.

وعليها أن نعي تماماً بأن ((البلاغة أحياناً تبدو .. لاتعتمد على ابتكار افكار جديدة، بل في التعبير عن الافكار من خلال حالة نفسية وجدانية، واسلوب منطقي نفسي، تجعلها تنفذ إلى نفوس السامعين، وتصبح الحالة التي يعانونها شبيهة بحالته))^(٤٣٨). منها ما جاء في شكوى اخرى أكثر المأ من سابقتها، وفيها تجد نفسية الإمام واضحة جداً للسامع، اذ قال:

"وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأُظَنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيَذَلُّونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمْ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَقَسَادِكُمْ، فَلَوْ انْتَمَيْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى فُجْعٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُونِي فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي"^(٤٣٩).

عمد الإمام □ إلى المقابلة بين حال اصحابه وحال خصومه، في اجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم وأدائهم الامانة واصلاحهم لبلادهم، لذا فالنصر والقوة معهم وان كانوا على باطل فالباطل قوي بتظافر اعوانه. اما الإمام □ على الرغم من كون الحق لجنبه ومعه الا أنه ضعيف، بسبب تفرق اصحابه وعدم طاعتهم له. ونظراً لذلك نجد □ يدعو الله سبحانه وتعالى ان يبدله بخير منهم...

شكوى اخرى من خطبة له □ وهي في اصحابه ايضاً، اذ قال:

"فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَيِّتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَعْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَشَرَبْتُ عَلَى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكُظْمِ، وَعَلَى أَمْرٍ مِنْ طَعْمِ الْعَلَقَمِ"^(٤٤٠)

"اغضيت على القذى" و"شربت على الشجى" - استعارتان تمثيليتان - جاء الإمام بهذا النص ضمن خطبته الانفة الذكر، ليعبر بهما عن شدة صبره على سلبه حقه وحرمانه منه بأغضائه على القذى ((وما اصعب ان يغمض الطرف على قذى في العين))^(٤٤١)، وشربه على الشجى وهو ما يعترض الحلق فيمنع الشراب.

وهكذا نجد □ يحول شعوره إلى صورة في الذهن، اذ يتولى الفكرة ومن ثم يعبر عنها بأحد عناصر الأداء البياني، فتأتي الصورة عميقة الايحاء وأكثر رسوخاً في النفس. وهذا ما جاء عليه كلامه □ في ساحة الحرب اذ يقول:

"إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ"^(٤٤٢)

الإمام يزين الموت في عيون جنده حتى يقدموا عليه من غير وجل، فالخطيب ((المعتقد صدق ما يدعو إليه تلتهب كلماته، وتستقر في القلوب عباراته؛ لانها قيس من نفسه المشتعلة، وصورة من عواطفه المنفعلة))^(٤٤٣).

كما جاء □ بنص آخر يصور فيه حالته النفسية قاصداً تشجيع اصحابه وبث الروح المعنوية في نفوسهم، اذ قال من خطبته اثناء مسيره إلى الشام:

"وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوَطَّنِينَ أَكْنَافَ دَجَلَةٍ"^(٤٤٤)

لقد تآزرت عناصر الاداء البياني في هذا النص من اجل التوضيح والاقناع بالافهام والمنطق، وتخير الإمام □ اللفظة المتينة المحكمة الاداء في موضعها، فقد استعمل □ "اقطع" على وجه الاستعارة أي تجاوز، واراد "بالنطفة" الماء القليل وهو نهر الفرات لذا يكون التعبير على ان ذلك امر هين، وعلى اصحابه □ ان لا يرتابوا من امر القتال في ذلك الموضع.

وعلى هذا نجد الوظيفة النفسية تتباين في ظاهر كلام الإمام من حث على القتال، ونقد وتعريض، وعتاب وتقريع، وتشجيع، يضاف الى ذلك بث الروح المعنوية... الخ، لكنها تتفق في جوهرها، اذ ينوه □ في جميعها على حالة واحدة، تركز على العاطفة التي يبثها في نفوس سامعيه لاجل طاعة الإمام والاخذ برأيه، فقد كان الإمام يقرر

^(٤٣٨) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٣٩.

^(٤٣٩) نهج البلاغة: ٦٥، ٦٤/١.

^(٤٤٠) نهج البلاغة: ٦٧/١.

^(٤٤١) م.ن: ٦٧/١.

^(٤٤٢) نهج البلاغة: ٢/٢.

^(٤٤٣) فن الخطابة: الحوفي: ٢٦.

^(٤٤٤) نهج البلاغة: ٩٧/١، ٩٨.

حقائق حتى يثير فيها المشاعر الحساسة، وكوامن النفوس تأثيراً مرة، وإقناعاً مرة أخرى.

المبحث الثاني

الوظيفة العقلية

الوظيفة العقلية:

عرض الإمام علي □ حججه وبراهينه لرفع الالتباس عن الناس، وللتحريض على القتال والحرب والجهاد في سبيل الله، بأسلوب عقلي تعبيراً عن ارادة اقناع الآخرين بدوافعه وحوافزه النضالية، ومعنى هذا أنه قد جعل العقل إطروحة بين يدي الادلة التي يريد تسخيرها بحق إلى الهدف المقصود، وهذا هو التوظيف العقلي في خطب الحرب عند الإمام □.

وعلى هذا فإن الوظيفة العقلية ((تعنى بالاستدلال العقلي على ابطال الباطل و ابراز الحق، ودفع الشبهة واقامة الدليل))^(٤٤٥).

أسلوب الخطابة العربية عامة تمتزج فيها الادلة التي تكفل بالاقتناع والتأثير معاً، وأن ((الخطيب البليغ يستطيع ان ينصر الحق كما يستطيع ان ينصر الباطل، بقوة حججه او براعته بالأقيسة والقضايا الظاهر منها والمضمر))^(٤٤٦). أسلوب الإمام □ في خطب الحرب هو اثارة الانفعال في نفوس اصحابه، وذلك بعرض الحقائق بصورة رائعة كما ادركها، وبهذا يجمع بين الافادة والتأثير. وهدف الإمام هو الوصول بالمستمعين إلى درجة التصميم على العمل، وتحفيز اصحابه على التقدم في ميدان القتال والحرب، وبفضله تتحول الافكار إلى احساسات ثم تتحول إلى ارادة وتصميم^(٤٤٧). لذا نرى الإمام ينجح إلى التعليل، وينحو نحو البراهين العقلية، دونما اثارة مباشرة للعواطف، وهذا ما جاء في كلام له □ وقد استنبط اصحابه أذنه لهم في القتال بصفين وجاء كلامه بصيغة المناظرة والجدل، اذ قال: "أَمَّا قَوْلُكُمْ أَكُلْتُ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ، قَوْلُ اللَّهِ، مَا أَبَالِي أَدَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ"^(٤٤٨).

اقسم الإمام □ أنه لايبالي، ا تعرض هو للموت أم جاءه الموت ابتداء من غير ان يتعرض له، فكان المجاز هنا خير وسيلة لتوضيح ذلك الأمر.

ويعود الإمام مرة أخرى في الخطبة نفسها، وفي المعنى نفسه - المناظرة والجدل العقليين - فيقول: "قَوْلُ اللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعُشُّوْا إِلَيَّ ضَوْئِي، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِأَتَامِهَا"^(٤٤٩). الإمام هنا يوحى عقلياً بأن وراء اعلان الحرب واصطكاكها هدفاً إلى الهداية والارشاد حتى يهتدي الناس بنور علمه، وتسير في ضوء نهجه، وهذا الهدف احب إليه من قتل الناس وهم على ضلال، وإن رجعت بأثمها، وحملت اوزارها، الا ترى ان الهدى احق بالاتباع من الباطل الذي يعود على المرء بالآثام؟؟.

الإمام القائد يحاول بث العزيمة في نفوس جنده، وتهوين الموت لديهم، واذكاء حماستهم، وبث الثقة فيهم فد) أسلوب الإمام علي يبدو اكثر تماسكاً وتلاحماً بحيث لا يتراكم فيه المعنى بعضاً على بعض بل يسمو الجزء اللاحق منه على الجزء السابق... فمعاني الإمام متصاعدة)^(٤٥٠).

وهكذا سلك الإمام الطريق نفسه في خطبته التي يستنفر فيها الناس إلى اهل الشام، قال الإمام □: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالْصِّحَّةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ قَيْنِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالْصِّحَّةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ. وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ. وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمُرُّكُمْ"^(٤٥١). الإمام هنا يعتمد على مخاطبة العقل من غير ان يلجأ إلى مخاطبة العاطفة، فهو يتوسل العقل والمنطق الواضح

^(٤٤٥) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٨٥.

^(٤٤٦) الأدب وفنونه: ١٦٧.

^(٤٤٧) ظ: نظرية الانواع الأدبية: M. Labbe ci ovincent " : ٣٥٣.

^(٤٤٨) نهج البلاغة: ١ / ١٠٤.

^(٤٤٩) نهج البلاغة: ١ / ١٠٤.

^(٤٥٠) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ١٤٩، ١٥٠.

^(٤٥١) نهج البلاغة: ١ / ٨٤.

المعالم. ويبدو الإمام هنا يحول حديثه إلى ((حديث فكري يخاطب العقول في وضوح وواقعية ورغبة في الاقتناع))^(٤٥٢)، فالإمام يوضح لأصحابه مالهم عليه، وما عليهم له. يحاول تذكيرهم قد ينبه ذلك عقولهم ويحثهم على تأجيل همهم للقتال.

محاججة عقلية أخرى جاء بها الإمام من خطبته في ساحة الحرب، اذ قال:
"إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَتِيبٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ"^(٤٥٣)
ومن الخطبة نفسها والمعنى أيضاً، قال:

"وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ وَلَا مَحْجُوزٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ"^(٤٥٤)

في النص الأول نهض التشبيه البليغ بالصورة كي يوضح بأن الموت - وهو معقول - كالتطالب الحثيث نحو الشيء، ولا يمكن لأي إنسان ان يهرب منه ان حان اجله، فالهارب لا يستطيع ان يفر منه، وليس كل من أراد الموت حصل عليه، ويكرر الإمام المعنى نفسه في النص الثاني، بطريقة أخرى فالجبان المتقاعس الفار من أرض المعركة غير مزيد في عمره بفراره.

الإمام هنا يحاول ان يكون اقرب إلى وجدان سامعيه فيعرض افكاره صوراً امام عيونهم، ويدعهم يبصرونها بقدر ما يفهمونها، وعلى هذا تركز خطب الإمام الحربية، فهي مؤثرة بواسطة الاسلوب التعبيري، فهي تدل على معانيها في يسر وسهولة ودقة، وتنفذ إلى الذهن والقلب معاً كما يعرف عن الخطيب البليغ ((من جعل اقدار اللغة وتصاريح الكلام مواتية لأقدار السامعين ومقتضيات الحال))^(٤٥٥).

من خطبة أخرى للإمام □ عند خروجه لقتال أهل البصرة في موقعة الجمل، قال:
"فَلَا تُقْبِلَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ"^(٤٥٦)

استعارة تمثيلية جاء بها الإمام كوسيلة لتشبيه حاله □ في اظهار الحق، بحال من ينقب الباطل ليظهر الحق منه.

لقد انتهج الإمام الواقعية، فكان يفعل ويغضب في سبيل الحق، ومما لاشك فيه أن ((الخطباء الناجحون هم الذين يتجهون إلى المشاعر يثيرونها والى العقول ليوظنونها))^(٤٥٧).

صوت الإمام هو صوت العقل المتزن، الذي يفصل فيما التيس من أمور في ميدان القتال، وهذا ما اعتمده □ - العنصر العقلي - فضلاً عن قوة الشعور، وجمال التعبير، قال □ في عتاب اصحابه وتقريعهم، قال:

"وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَا جَ مِنْ نَبِيِّ، وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْفُطُهُ لَفْطاً"^(٤٥٨)
"الطريق الواضح" كناية عن الحق، فهو المنهاج المستقيم، وقد كنى الإمام □ عن اتباعه هذا المنهاج باللفظ وهو الأخذ فكأنما الإمام القائد يلتقط الحق من بين طرق الشر المختلفة، فهو يستخرج الهدى من بين الأضاليل، ويميز الحق من الاباطيل.

خطب الإمام الحربية، مرآة لعقله، وخلقه، وطريقة تفكيره فهو يدعو اصحابه في كل خطبة الى الأخذ بسبل العقل والتأمل.

منها يصف الإمام اصحاب رسول الله □ من كلام له يوم صفين، وجاء كلامه □ بصيغة الفخر بهم، قال:
"وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، نَقُتِلُ أَبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْقَلَمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ"^(٤٥٩)

صحابة الرسول □ كانوا في سبيل الحق يقتلون اباؤهم وابناءهم واخوانهم واعمامهم، وبأمر الرسول وهم على

^(٤٥٢) الأدب وفنونه: ١٦٧.

^(٤٥٣) نهج البلاغة: ٢ / ٢.

^(٤٥٤) م.ن: ٤ / ٢.

^(٤٥٥) التفكير البلاغي عند العرب: ٢٠٣.

^(٤٥٦) نهج البلاغة: ٨١ / ١.

^(٤٥٧) فن الخطابة: الحوفي: ١٣١.

^(٤٥٨) نهج البلاغة: ١٨٩ / ١.

^(٤٥٩) م.ن: ١ / ١٠٤، ١٠٥.

يقين من دينهم وراحة من ضميرهم.. وذلك حث على القتال، وفي هذا الكلام مجاز عقلي، قصد الإمام منه الاقتناع والتأثير لينقل أصحابه من موقف إلى آخر، ويذكرهم بالقيم والمثل كلها التي آمن بها المسلمون السابقون. خطب نهج البلاغة عامة، تبين قدرة الإمام على جلاء المعاني والكشف عن الحجة، والإيحاء باعمق الحقائق فضلاً عن قوة ادراكه ((تلك القوة التي بها يعرف الانسان ويفكر ويعمل ويستنبط، وهذه القوة تحتاج في ثقافتها والتأثير فيها إلى الحقائق الصحيحة المعقولة بالبراهين الصادقة، ومعنى المطابقة بالنسبة لهذه القوة تمكين القراء والسامعين من إدراك المعاني وفهمها والاقتناع بها، وهي القوة التي تغلب على رجال العلم والفلسفة والسياسة))^(٤٦٠). تأكيد الإمام □ على الوظيفة العقلية بدا واضح المعالم. فمن خطبة له □ في تخويف اهل النهروان، وجاء بصيغة التهديد والانذار، اذ قال:

"وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُتَابِعِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمُ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخَفَاءِ الْهَامِ، سَفَهَاءُ الْأَحْلَامِ"^(٤٦١)

"اخفاء الهام" كناية عن ضعف عقولهم وقلة مداركهم، فالإمام يخاطب العقل بقدر ما يخاطب القلب، من خلال ابراز المعنى، فقد اراد من الكناية هنا ان تشد من ازر العاطفة، ومن ثم تحرك ارادة من يخاطب الإمام من اهل النهروان؛ وهم من نهاهم عن اجابة اهل الشام في طلب التحكيم، فالإمام يترسم التقرير والتعبير المباشر لما انفعل به، فهو يبرز ما يريد في خطبه □ ويهدف فيها الكشف عن شكل من الوقائع والقيم الانسانية والحوادث ومن ثم يتناول اخلاقيات اصحابه، فمن واجبه كقائد ان يستحث الارادة في جيشه ويستثير العزيمة فيهم. ولأن ((اليقين المؤسس على العقل والادراك يبقى ثابتاً دون تحول... وهكذا يلتزم المرء دائماً سبيل الطاعة امام سلطان العقل، فهو باسم الحقيقة والعدل والخير يعمل))^(٤٦٢).

ان من اهم الخصائص العقلية^(٤٦٣)، الرصد العقلي أو أثارته وهذا ما كان يفعله الإمام □ مع اصحابه حتى ينبه مداركهم، ومن ثم يكونوا مستقلي الارادة والاعتبار والنظر.

(٤٦٠) الاسلوب: ٢١، ٢٢.

(٤٦١) نهج البلاغة: ٨٧/١.

(٤٦٢) نظرية الانواع الأدبية: ٣٧٥.

(٤٦٣) ظ: مجاز القرآن: د. محمد حسين علي الصغير: ١٠٣.

المبحث الثالث

الوظيفة الدينية

- ١ - ظاهرة الدعاء
- ٢ - ظاهرة الحث على الجهاد

الوظيفة الدينية

الدين هو اعمق عاطفة في نفس الانسان، ويرى الإمام □ ان واجبه الشرعي يحتم عليه ان يستثمر خطبه إلى أصحابه لتوجيههم إلى التمسك بالدين، ولن تشغله الحرب عن هذا الواجب، بل انها -الحرب- هي أولى دعائم الدين، ولذلك حفلت خطب الحرب عنده بالاشارات إلى بعض الاحكام الدينية التي يحتاج إليها المسلم في السلم، والحرب على السواء.

الوظيفة الدينية في خطب الحرب عند الإمام تؤكد السنن والمستحبات ومجالات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين، والدعاء بما يصلح شأن النفس والأمة، وكلها وظائف دينية في أطر اخلاقية وتربوية وشرعية، تستقي من تعليمات الدين الاسلامي الحنيف باعتباره من ابرز الروافد التي امتدت خطب الإمام □ وقلوب الناس تتأثر بهذا المنهج، لانها تصلهم بالخالق سبحانه وتعالى وتبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والاخرة، وقد برع الإمام في عرض الامور الدينية ضمن خطبه الحربية، فقد عرضها بأسلوب شائق، وجملها بالوان من التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، بلا تكلف ولا تعسف.

اعتمد الإمام القائد على اثارة عاطفة أصحابه، ليحبب اليهم طريق الحق، وهو طريق الخير، ومن ثم يوجههم إلى تقوى الله وخشيته فقد كان ((زهد الإمام قائم على ايمان حي بالله وتقوى صحيحة له، فانه من اشد الناس تعلقاً بالله ومن اكثر الناس تأملاً بصفاته وعجائب مصنوعاته))^(٤٦٤).

وترتكز خطبه □ على التعاليم الاسلامية الفذة، فيورد في خطب الحرب مضمناً الآيات القرآنية والاحاديث النبوية مبيناً المعاني الدينية التي تساعد على اضرام نار الحماسة في صدور أصحابه للذود عن الدين ونشر لوائه. وتتجلى الوظيفة الدينية عند الإمام □ بظاهرتين بارزتين، سوف يؤكد البحث عليهما وهما:

- ١- ظاهرة الدعاء.
- ٢- ظاهرة الحث على الجهاد.

١- ظاهرة الدعاء.

فلأنه يستمد بها الحول والطول من الله، فالقوة وحدها لا تحقق النصر، ولا تهدي القلوب، ولا تنتزع الظفر، بل يضاف إلى ذلك الاطمئنان لله عز وجل، وطلب النصرة منه، وحصر الاستعانة به في كلّي الامور وجزئها، وهكذا صنع الإمام عملاً بقوله تعالى [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ] (البقرة-١٨٦) والله اقرب للإنسان من حبل الوريد، فلينزل مقاصده به وحده، ولولا الدعاء لم يعبأ الله بالناس كما نص القرآن على ذلك في قول: قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [الفرقان-٧٧] لهذا نجده مبتدأ بهذا المضمار ومتدرجاً، قال □:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُقْلَبِ وَسَوْءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ.
اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَنْصَحًا وَالْمُسْتَنْصَحُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا"^(٤٦٥)

^(٤٦٤) الموجز في الأدب العربي: ٣٥٢ / ١.

^(٤٦٥) نهج البلاغة: ٩٦ / ١.

هو دعاء دعا به الإمام عندما وضع رجله في الركاب، لكي يلتقي مع أهل الشام بصفين. جاء كلامه □ مطمئن لمن هم معه في المسير إلى الحرب. لأن الباري عز وجل هو خليفتهم في أهل فضلاً عن مصاحبتهم لهم، صورة رائعة جاء بها الإمام لشد أزر أصحابه، حتى يقدموا بكل شجاعة على ما هم عازمون عليه.

ومن خطبة أخرى عند مسيره □ إلى الشام، خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلى صفين، قال:
"الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ
الْإِنْعَامِ وَلَا مُكَافَأِ الْإِفْضَالِ" (٤٦٦)

جاء □ بهذا الدعاء لينبه به أصحابه بأن عليهم ان يحمدا الله على عاقبة كل أمر، ايا كانت تلك العاقبة فقد جاء الإمام بصور متقابلة بقوله "كلما وقب ليل وغسق" أي دخل واشتدت ظلمته، ومن ثم جاء بـ"لا ح نجم وخفق" أي ظهر وغاب... فالإمام يحمدا الله سبحانه وتعالى على كل شيء. وعلى أصحابه ان يدركوا ذلك الحال.

ومن كلام آخر له □ لما عزم على لقاء القوم بصفين اذ ابتهل إلى الله عز وجل، فقال:
"اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِّلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِنَّ أَظْهَرَّتْنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَبَّنَا الْبَغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ. وَإِنْ أَظْهَرَّتْهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَأَعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ" (٤٦٧)

دعاء صريح عن نوايا الإمام □ فإنه يدعو الله سبحانه وتعالى احد حاليين اما النصر وعند ذلك يدعو ربه ان يتجنب البغي وان يسدد خطاه للحق، والحال الثاني أي اذا اظهر العدو عليه فهو يدعو ان يرزقه الرب الشهادة او العصمة من الفتنة. فدعاء الإمام هنا يقوم ((بالدور الايضاحي في ابراز المعنويات بقلب حسي، وتجسيد العقليات بأطار مدرك، وقد اعتمد الظواهر الكونية... فجاءت الصور حسية دائبة بالحركة، ومادية لا يتخطاها الادراك)) (٤٦٨).
ومن كلام له □ وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام ايام حربهم بصفين، فطلب منهم الكف عن السب وعلمهم الدعاء الآتي ادباً وتوجهاً، فقال:

"اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جَهْلِهِ وَيَرْغَبُوا عَنِ الْغِيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ" (٤٦٩).

دعاء الإمام هنا يحمل قيمة انسانية باقية تصلح لكل عصر، فكلماته تصنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة (٤٧٠). خلق الإمام العظيم يدعو أصحابه بان يدعو بالهدى بعد الضلال الذي اصبحوا عليه خصومهم. وان يعرفوا طريق الحق بعد ان لهجوا بطريق الغي والعدوان.

دعاء اخر دعا به الإمام □ من خطبة له بعد التحكيم، اذ قال:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ" (٤٧١)

دعاء الإمام هذا، يدعو السامع إلى ان يتعظ منه ويأخذ دروساً عدة منها، أن يحمدا الانسان كل ما تؤول اليه الامور والاشياء من عواقب، اياً كانت نهايتها، نجد □ يحمدا الله سبحانه وتعالى، عما جرى نتيجة التحكيم فنعته الإمام بـ"الخطب الفادح والحدث الجليل"، فكل ما حدث لم يرتضيه الإمام ولم يكن موافقاً عليه ولكن "لا رأي لمن لا يطاع" وبعد أن حمد الله على ما جرى يكمل □ خطبته بالشهادة، وهي اولى ما بني الاسلام عليه، وهو قول ((لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله □))، وهذا القول دلالة عن عدم تزعر الايمان في نفس الإمام وعندما ذكره □ امام أصحابه اراد تذكيرهم بأحد اركان الاسلام الخمسة وهو ترديد الشهادة.

اما الصيغة الثانية التي جاء بها دعاء الإمام □ ضمن خطب الحرب، هي الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، والتوجه إليه بالشكوى وجاءت ادعيته تلك بصيغة النقد والتعريض، كما ورد في خطبته □ في أصحابه بسبب تقاعسهم عن القتال، اذ قال:

(٤٦٦) نهج البلاغة: ٩٧ / ١.

(٤٦٧) نهج البلاغة: ٨٣ / ٢، ٨٤.

(٤٦٨) الصورة الفنية في المثل القرآني: ٣٨٥.

(٤٦٩) نهج البلاغة: ١٨٥ / ٢، ١٨٦.

(٤٧٠) ظ: فن الخطابة: الحوفي: ١٦١.

(٤٧١) نهج البلاغة: ٨٤ / ١، ٨٥.

"اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَأْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيَّمْتُهُمْ وَسَيَّمُونِي فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي، اللَّهُمَّ مَتِّ فُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاتُ الْمَلُوحُ فِي الْمَاءِ" (٤٧٢)

يدعو الإمام □ ربه لأن يسلط على أصحابه الهموم والاحزان فكلاهما يؤثران في القلب، كما الملح في الماء، فكان التشبيه التمثيلي هنا خير معين في إيصال الصورة التي ارادها الإمام.

دعاء آخر من كلام له □ في طلحة والزبير، قال:

"اللَّهُمَّ إِنِّهِمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَتَكَّنَا بِيَعْتِي، وَأَلْبَا النَّاسَ عَلَيَّ فَاحْلُلْ مَا عَقَّدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرْهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا" (٤٧٣)

يورد الإمام الشكوى منهما أولاً على الرغم من علم الله سبحانه وتعالى بما يجري، إلا أن الإمام قصد ذكر أفعالهما أمام أصحابه حتى يزداد يقينهم بما يحدث، ومن ثم يطلب ويدعو من الله أن يحل ما عقدا من أمر عليه، وأن لا يتم لهما ما ارادا من أمر وأن يجعل عاقبة ما أملا عليه وعملا هو سوء.

قول آخر للإمام □ يدعو فيه سبحانه وتعالى وهو عبارة عن شكوى أخرى يدعو فيها الإله الاستنصار على قریش من إحدى خطبه، اذ قال:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِينُكَ عَلَى فُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَعَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي، ثُمَّ قَالُوا إِلَّا أَنْ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَرْكُهُ" (٤٧٤)

وردت الاستعانة بالله سبحانه وتعالى في النص اعلاه صريحة وواضحة، فقد استعان الإمام □ بالله على اهل قریش، وقد وضح الإمام سبب طلب العون، لانهم قطعوا رحمه وقد نهضت الاستعارة هنا بتهويل الصورة، لأن الرحم يستدعي المحافظة على الصلة، فكان القطع أشد ايلاماً.

لا يشترط في الأدب أن يكون نافعاً، بقدر ما يشترط أن يكون معبراً (٤٧٥). وعلى هذا ارتكزت خطب الإمام □.

٢- ظاهرة الحث على الجهاد

وكما بدت الوظيفة الدينية بارزة الاثر في الدعاء، فقد برزت في مجال الحث على الجهاد، والدعوة اليه، فهو □ يحض عليه ويدعو الناس له، ويحييه الى نفوسهم، الا ترى قوله □:

"أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةِ، وَجُنَّةُ الْوَثِيقَةِ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ الْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الدَّلِّ وَشَمَلَةَ الْبَلَاءِ" (٤٧٦)

كلام صريح وبيّن عن فضل الجهاد في الحياة الدنيا والآخرة، فقد استمد □ من اشعارات الدين، ما يضيء به كلامه، فهو زاهر بالمعاني السامية التي تملأ قلبه، وتنقف افكاره، وهي مقتبسة من القرآن الكريم (٤٧٧).

كسا الإمام □ كلامه باجمل حلة بيانية، وقال "لباس التقوى" و"درع الله الحصينة" تشبيه بليغ، فالجهاد هو التقوى نفسها.

مرجع افكار الإمام القائد، التقوى والواجب معاً، ونجده □ يعتمد في الخطبة الواحدة إلى الترغيب ومن ثم إلى التهيب، ويبدو ان الإمام يجد في التهيب اكثر تأثيراً في النفس وأعمق وأبعد صدى، اذ قال □ من الخطبة نفسها "فمن تركه -الجهاد- رغبة عنه البسه الله ثوب الدل، وشمله البلاء"، وقد تآزرت عناصر البيان-الاستعارة والكناية- لتجعل الكلام اعمق أثراً في نفوس سامعيه. وهنا الإمام (لم يكن يحاول ان يفهم المقاتلين معنى التقوى، بقدر ما يسعى لاستثارة تلك العاطفة، مصوراً لهم الجنة وعذاب النار، وذل القاعدين عن الجهاد، حتى ينتقلوا من طور السلبية، من

(٤٧٢) م. ن.: ٦٥ / ١.

(٤٧٣) م. ن.: ٢١ / ٢.

(٤٧٤) نهج البلاغة: ٨٥ / ٢، وظ: شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٢ / ٢٠٢.

(٤٧٥) ظ: العمل الأدبي: ٢٢٩.

(٤٧٦) نهج البلاغة: ٦٧ / ١.

(٤٧٧) ظ: الأدب العربي في الجاهلية والاسلام: عمر رضا: ١٦٧.

الخمول والعصيان والشغب إلى الجهاد والصبر والطاعة^(٤٧٨).
ويعود الإمام □ إلى الجهاد وشذ هم أصحابه ويظهر قيمته بالنسبة للدين اذ قال من كلام له □ لما عزم على لقاء القوم بصفين:

"أَيْنَ الْمَانِعِ لِلدَّمَارِ وَالْعَائِرِ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاطِ، الْعَارُ وَرَأْيُكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ"^(٤٧٩)

يحاول الإمام ان يثير هم أصحابه للدفاع كل عن اهله وعشيرته. وقوله "عند نزول الحقائق" أي المصائب العظيمة التي لاتدفع الا بعازمات الهمم، ويحاول ان يذكرهم بأن العار وراءهم والجنة أمامهم، ومطمع كل مسلم الجنة حتماً.

ومن خطبة اخرى يحث الإمام فيها أصحابه على الجهاد قال:
"وَاللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُورِثَكُمْ أَمْرَهُ وَمُمْهَلِكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ لِيَتَنَازَعُوا سَبْقَهُ، فَشُدُّوا عُقْدَ الْمَازِرِ..."^(٤٨٠)

يبدو الإمام في هذا النص يدعو أصحابه اولا إلى شكر الله سبحانه وتعالى، لأنه في اخر الامر يورثكم أرضه، ولكن لمن يرث أرضه سبحانه وتعالى؟ يرثها عباده الصالحين، ويعود الإمام فيكمل كلامه بقوله "مهلكم في مضمار محدود لتتنازعوا سبقه"، اذن فعلى كل من أصحابه ان يكون متيقناً بأن الحياة ما هي الا مهلة اعطاها الله إلى عباده كي يعملوا فيها صالحاً، إذ أن وحياتهم محدودة بالاجل وجاءت الاستعارة هنا وسيلة بيّنة في جعل حياة المسلم كالمضمار^(٤٨١). ليتنافسوا في سباقه، والميدان هنا هي الحرب فالجهاد هو مضمار السباق.

يرتفع الإمام إلى قمة النصيح، لانها صادرة عن عقيدة معتمدة على الصدق والحق معاً.
وسيلة أخرى يحث فيها الإمام أصحابه على الجهاد وذلك بذكر الصحابة الاوائل، من كلام قاله للخواج وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على انكار الحكومة، فقال □:

"فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيْمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ"^(٤٨٢)

ومن ثم يكمل الإمام كلامه ويوضح سبب القتال الذي يدور في تلك الفترة، اذ قال:
"وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْإِعْوَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالنَّأْوِيلِ"^(٤٨٣)

كانت المقابلة هنا خير رافد للوظيفة الدينية فالإمام □ يحاول ان يثير عزيمة أصحابه بتذكيرهم بمن سبقهم في الاسلام -فقد كانوا يقتلون اقرب الناس اليهم من ابناء واقارب، وما يزيدهم ذلك الامر الا ايماناً وتسليماً- اما اليوم فما نحن عليه من قتال لأخواننا في الاسلام بسبب الزيغ الذي هم عليه والاعوجاج..فما هي الا فتنة، وفعلها اشد من القتل.

ولاكتفي الإمام □ بالحث على الجهاد بل يضيف إلى ذلك بيان فضل الجهاد بأعتبره قائداً إلى الجنة، فهو يخاطب المقاتلين بساحة الحرب بقوله :

"الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرُدُّ الْمَاءَ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي"^(٤٨٤)

هناك انتفاع من المضمون الفكري للنص القرآني، والحديث النبوي، كما سبق، واشرنا إلى ذلك. واستعمال الإمام لهذا النص ليمنح خطبه الحربية احياء اكثر. وجاء التشبيه هنا ليمنح القوة في الاشتراك بين الطرفين، جعل الكلام يبدو اكثر قدرة على الاحياء بالمعنى. بأن الله سبحانه وتعالى يروي ظمأ المجاهدين، فالجنة تحت اطراف سيوفهم.

^(٤٧٨) فن الخطابة: ايليا الحاوي: ٩.

^(٤٧٩) نهج البلاغة: ٨٤ / ٢.

^(٤٨٠) م.ن: ٢٣٣ / ٢، ٢٣٤.

^(٤٨١) أصل المضمون: المكان الذي تضر فيه الخيل أي تحضر للسباق/ظ: نهج البلاغة: ٢٣٣ / ٢.

^(٤٨٢) نهج البلاغة: ٢٣٦ / ١.

^(٤٨٣) م.ن: ٢٣٦ / ١.

^(٤٨٤) م.ن: ٤ / ٢.

نرى الإمام □ يتبع سبيلاً آخر من أجل حث أصحابه على القتال، وشد أزرها، وذلك عن طريق تذكيرهم بقرب سبحانه وتعالى، منهم، فهم أصحاب حق، إذ قال □ من كلام كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين:

"وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعِثَ اللَّهُ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَعَاوِدُوا الْكَرَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ، وَتَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ" (٤٨٥)

خطب الحرب مشبعة بروح التقوى، والدعوة لمظاهرة الحق على الباطل، وجاء □ بذكر الله والاطمئنان لقربه منهم فهم ((بعين الله))، فقد جاءت الكناية هنا لتوحي بقرب الباري عز وجل منهم. فهو قريب ممن يجاهد في سبيل اعلاء كلمة الحق ونصرتها.

وكما وصف الإمام قرب سبحانه وتعالى من الظالم فهو قريب، ايضاً منه، إذ قال من خطبة له □:

"وَلَكِنَّ أَمَهْلَ الظَّالِمِ قَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَيَمَوْضِعِ الشَّجَى مِنْ مَسَاغٍ رِيقِهِ" (٤٨٦)

جاء الإمام بـ ((الكناية)) كوسيلة للتعبير عن قرب الله سبحانه وتعالى من الظالم وتمكنه منه حيث شاء، وجاء كلام الإمام تمثيلاً لقرب السطوة الالهية، فعلى أصحابه او سامعيه عامة ان يحذروا من افعالهم واقلالهم. كما استعمل الإمام □ الدين هنا في عتاب أصحابه وتقريعهم، بما عُرف عنهم في عدم طاعتهم له. إذ قال من خطبة له في ذم أصحابه:

"أَوَلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجَفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ. وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ الْإِسْلَامَ وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ فَتَقَرَّفُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ" (٤٨٧)

حاول الإمام في هذا النص ان يعاتب أصحابه بعد ان جعل هناك مقابلة بين ما عليه أصحاب معاوية من حال - فهم "الجفاة الطغام" ولكنهم مطيعون له - وبين حال أصحابه وهم خلف الاسلام، وعلى الرغم من معونته لهم من العطاء فهم متفرقين عنه ومختلفين عليه. يبدو الإمام واضحاً في قصده حينما قال انتم "تريكة الاسلام وبقية الناس". ويعود الإمام □ إلى الجهاد ويظهر قيمته بالنسبة للدين وذلك بعد ليلة الهرير، إذ يذكر أصحابه المتقاعسين، بأصحاب الرسول □ وجاء كلامه بصيغة العتاب والتقريع:

"أَيُّنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ.. يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعْزِزُونَ عَنِ الْمَوْتَى" (٤٨٨)

لكي يثير الإمام مشاعر أصحابه، يذكرهم، بأصحاب الرسول □، الذين كانوا لا يبشرون بالاحياء، فهم يطلبون الموت في سبيل نصرته الحق، وكانت الكناية أفضل من جسد ذلك المعنى أما قوله □ "لايعززون عن الموتى" كناية ايضاً، على أن الموت عندهم غاية السعادة، معتمدين أي الذكر الحكيم بقوله:

[وَلَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ] (٤٨٩)

فالشهادة هي الفوز العظيم، وهكذا فـ ((العقيدة الدينية هي الركن الاساسي، لانها تقدم الافكار التي يبنى عليها كل شيء)) (٤٩٠).

خطبة اخرى يذكر الإمام فيها أصحاب الرسول □ ايضاً وفي المعنى نفسه، قال:

"لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشَبِّهُهُمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكْبَ الْمِعْزَى، مِنْ طَوْلِ سُجُودِهِمْ" (٤٩١)

أصحاب الرسول □ يطلبون السجود، فلا يشغلهم شيء عن عبادة الله، فهم لا ينامون الليل لأجل ذلك، جاء □ بهذا الكلام كي يثير همهم وعزائم أصحابه المتخاذلين عن نصرته الحق.

(٤٨٥) نهج البلاغة: ١١٤/١، ١١٥.

(٤٨٦) م. ن: ١/١٨٧.

(٤٨٧) م. ن: ٢/١٠١.

(٤٨٨) نهج البلاغة: ١/٢٣٥، ٢٣٤.

(٤٨٩) سورة آل عمران: ١٦٩.

(٤٩٠) الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الاموية: ٣٢.

(٤٩١) نهج البلاغة: ١/١٨٩، ١٩٠.

الإمام يدعو أصحابه إلى العمل الصالح، وما قصده □ (ليس مجرد الطقوس العبادية، وإنما هو كل ما يساهم في إقامة الحياة الفاضلة على الأرض وفق دستور الله: القرآن الكريم، من صلاة، وزرع، وصناعة.... وإقامة الحق والعدل)^(٤٩٢) أيضاً.

ونجد الإمام على طول خطب الحرب مع أصحابه يحاججهم في سبيل اقناعهم عن طريق البراهين العقلية بالدين، ولا بد له من الانفعال ليحقق التأثير.

فمن قوله □ في حث أصحابه على القتال في ساحة الحرب إذ جاء كلامه بصيغة النقد والتعريض، اذ قال:

"وَأَيُّمُ اللَّهِ لَئِنْ قَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لَا تَسْلُمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ"^(٤٩٣)

تتفاعل المؤثرات الدينية والسياسية في خطب الحرب والمعبر عن هذا التفاعل، هو البيان من تشبيه واستعارة وكناية فقد ((اقسم □ ان سلموا من الالم النازل بهم لو قتلوا بالسيف في الدنيا، فانهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة، على فراهم وتخاذلهم، وسمي ذلك سيف الدنيا فجعل ذلك في مقابلته))^(٤٩٤).

فالامام نجده هكذا، يجعل كل من العز والكرامة في كف، والذل والهوان بالكف الآخر، أي مرضاة الله وغضبه.. وعليهم أن يختاروا. فالانتصار الحقيقي عند الإمام هو الانتصار على النفس في كبت جماحها وميلها إلى الخطيئة.

ومن خطبة أخرى جاءت في الأسلوب نفسه نقداً، للخارجين عليه وتعريضاً بهم، ومن ثم حث أصحابه على القتال، اذ قال:

"وَلَعَمْرِي مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالٍ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَطَ الْغَيَّ مِنْ إِدْهَانٍ وَلَا إِيْهَانٍ، فَأَتَّقُوا اللَّهَ

عِبَادَ اللَّهِ وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنْ اللَّهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَ لَكُمْ وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ"^(٤٩٥)

"فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وكلام مشبع بروح التقوى، والدعوة لمظاهرة الحق على الباطل، فالامام يؤكد على أصحابه ان يتمسكوا بالعروة الوثقى، وان يسيروا على نفس النهج الذي وضعه الباري عز وجل على يد رسوله الكريم □ وسيكون طريقهم -أصحابه- طريق الخير والحق معاً، وهو ما جاء به الاسلام منذ الوهلة الأولى لنزول الوحي على نبيينا الكريم.

خطبة أخرى في تخويف اهل النهروان قال □:

"فَأَنَا نَذِيرُكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرَعى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْعَائِطِ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّكُمْ وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ"^(٤٩٦).

"على غير بينة من ربكم ولاسلطان مبين معكم" يبدو الإمام واضحاً في ابراز ما يريده، فهو يريد ان ينبه الخارجين عليه بأنهم في ضلال من أمرهم، فلا توجد معهم بينة من ربهم ولا سلطان مبين أيضاً. وهي محاولة أخرى في نقدهم والتعريض بهم فهم سيصبحون صرعى في هذا النهر - نهر الفرات - وعليهم ان ينتبهوا لذلك، عسى ان يحرك او يثير شيئاً ما في دواخلهم.

الاحكام الشرعية كانت احدى الموضوعات البارزة في خطب الحرب فقد مزج الإمام بين الدين والسياسة فيها وكان هدفه، اقناع جنوده بصحة ما يدعو اليه، ولأن زهده □ ((نابع من عقيدة راسخة ونظر عميق إلى حقيقة الدنيا التي كان يراها طريقاً إلى الآخرة، وهي حافلة بالشرور))^(٤٩٧).

من هذه الاحكام الشرعية ما جاء من خطبة له □ بصفين اذ قال:

"أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بَوْلَايَةً أَمْرُكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ... وَأَعْظَمُ مَا اقْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ

^(٤٩٢) العمل الأدبي: البستاني: ١٥٤.

^(٤٩٣) نهج البلاغة: ٣/ ٢.

^(٤٩٤) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد: ٦/ ٨.

^(٤٩٥) نهج البلاغة: ٦٣/ ١.

^(٤٩٦) نهج البلاغة: ٨٦/ ١، ٨٧.

^(٤٩٧) الموجز في الأدب العربي: ٣٥٢/ ١.

الرَّعِيَّةَ عَلَى الْوَالِي فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ، فَجَعَلَهَا نِظَامًا لَأَلْفَتِهِمْ وَعِزًّا لِدِينِهِمْ^(٤٩٨)

وفي المعنى نفسه قال □ من خطبته في استنفار الناس إلى اهل الشام، قال:
"أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ
فَيْئِكُمْ عَلَيَّكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا.
وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ،
وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمُرُّكُمْ"^(٤٩٩)

نرى الإمام □ يؤكد على هذا الحكم الشرعي بتكراره ضمن خطبه الحربية، فهو حكم من الله وعليهم ان يتذكروه دائماً وان لا يتناسوه. والامام لا يطالب بحقه عليهم فقط، بل، بما لهم عليه من حق ايضا. فقد حدد □ ماله وما عليه، محاولة منه ان يتعظوا ويهموا في طاعته، وجعلها من أعظم تلك الحقوق، ولكن، الإمام لم يحظ منهم، سوى التخاذل والتقاعس.

الإمام علي □ عرف بحق اصول الخطابة فما عرف اساساً عن فني ((الخطابة والكتابة، انهما مختصان بامر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار))^(٥٠٠).

لقد وشح الإمام خطبه العسكرية ((بالحض الديني ذاكرات الاحداث المثيرة للهمم من تاريخ الاسلام القريب، واذ يشتد الخصام بين المصلحة السياسية والحقيقة الدينية، فان الإمام كان يؤثر الثانية، اذ يبدو، ابدأ، خلال خطبه وكأنه قيم على الدين حريص عليه ترهفت مشاعره بالنسبة إلى ما يطرأ عليه، وما قد يشعر به من شوائب))^(٥٠١)، فكل ما جاء به الإمام □ هو عصارة ايمانه وتقواه.

^(٤٩٨) نهج البلاغة: ٢ / ١٩٨.

^(٤٩٩) نهج البلاغة: ١ / ٨٤.

^(٥٠٠) كتاب الصناعتين: ١٤٢.

^(٥٠١) فن الخطابة : ايليا الحوي/ ١٥٥، ١٥٦.

الخاتمة

الخاتمة

((خطب الحرب)) اثر من الآثار الفنية بقدر ما هي وسيلة للإقناع والتأثير، وقد كان الامام □ يقصد اهدى السبل

إلى اقناعهم بفكرته فيتخير من الكلام ما هو ملائم لأثارته، فيأتي بالصور البيانية المؤججة لعواطفهم.

وقد لخصت اهم النتائج التي جاء بها البحث بدءاً بـ:

التمهيد: جاء التمهيد في عدة محاور، استعرضنا أولاً الاداء البياني مصطلحاً، فقد عدت الفنون البيانية اكثر قدرة على الكشف عما في الالفاظ من امكانات كامنة على وفق علاقات صياغة يحددها نوع الفن البياني. ومن ثم جاء اثر الاداء البياني في فن النثر، عامة، وفي الخطب خاصة، فقد كانت الخطابة في العصر الجاهلي ذات شأن عظيم، ومن ثم جاء الاسلام ولحق التطور بالخطابة كباقي الفنون الأدبية الأخرى، فقد املى نهجاً في الحياة يبين سابقه وكما هو معروف فان الأدب يتوافق مع السياسة والتوجيه العام ليخرج من هذا اللقاء نثر تشهد قوة تعبيره سلاحاً في المعركة ويعود الفضل في ذلك إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مما ادى إلى زيادة الخطابة قوة ووقفاً في النفوس. وانتهينا إلى ان كتاب ((نهج البلاغة)) يعد سفراً خالداً من اسفار الأدب العربي الاسلامي، ولامجال للشك في مدى اهميته.

□ درسنا في الفصل الأول مصادر الأداء البياني، فجاءت على وفق افادة الإمام منها في اربعة مباحث:
القرآن الكريم: لاشك في ان القرآن الكريم اذا ذكر ضمن الكلام بان فضله على عبارات الخطبة ومن ثم تصبح ابلغ في الوصول إلى المراد وواقع في النفوس، والامام علي □ رقد خطبه الحربية من القرآن الكريم فقد اخذ منه كثيراً من المعاني والدلالات وجاء اثر القرآن في خطب الإمام الحربية بأربعة محاور :

- (أ) الاستشهاد بالآيات الكريمة .
 - (ب) انتقاء المفردة القرآنية.
 - (ج) الالفاظ المتقابلة في الآيات القرآنية.
 - (د) الافادة من التركيب الجملي في الآيات القرآنية.
- الحديث النبوي الشريف: استعان الإمام □ بالاحاديث النبوية الشريفة في توشيح خطبه، واضفاء الجمال الفني، وقوة التأثير فيها، كما استعان بالصورة البيانية والافصاف التي وردت في كلام النبي □ حيث اراد التعبير عن معنى مشابه لها، وقد جاء اثر الحديث النبوي في خطب الحرب للإمام □ عن طريقين:

(ب) الاقتباس بالمعنى

الشعر العربي: تمكن الإمام □ بأصالة ان يوفق بين القيم الايجابية المتوارثة، والمثل الدينية الجديدة، فقد جاءت خطب الحرب للإمام □ تحمل في طياتها شيئاً من روح الشعر لأثارته كوامن النفس عند اصحابه بجانب مقتضيات العقل. وكما يبدو أن لسرعة خطبة الحرب والغاية منها كانت وراء ابتعاد الإمام □ عن الاستشهاد بالشعر في تلك الخطب، فالإمام يسعى إلى شحذ همم اصحابه وتبصيرهم بأهمية الجهاد وفضله من خلال الشريعة الاسلامية وهذا اقوى في تأثيره في النفوس.

الأمثال العربية: عني الإمام □ بالحجة والبرهان، فهو يرمي إلى القناعة المنطقية لتكون المبادئ اكثر عمقا في نفوس اصحابه وسامعيه و عليه فقد استقى الإمام من الأمثال بمحورين، فضلاً عما جاء به □ من ثقافته الخاصة وهما:

- (أ) التضمين ، والتلميح.

(ب) الأمثال المبتكرة.

□ ودرسنا في الفصل الثاني العناصر التي يتكون منها الأداء البياني فجاءت نتائجه موزعة في أربعة مباحث.
التشبيه : مثل الإمام حقائق الأشياء وطبيعة الموصوفات بأوجه شبه مناسبة، بما يحقق الجانب البلاغي وقد كان نصيب التشبيه البليغ وافرأ من بين انواع التشبيه الأخرى.

المجاز : وقد درسناه بنوعيه -العقلي والمرسل- وهما اقل الانواع استعمالاً في خطب الحرب موازنة بانواع الأداء البياني الأخرى، لأن الإمام بطبيعته يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف. وبما ان خطبة الحرب اكثر الخطب ارتجالاً، فالامام يجد في الفنون البيانية الاخرى طريقاً اسهل في ايصال افكاره ومشاعره.
كان المجاز العقلي سبيلها لتلوين الافكار وتوليد الصور، وبعث الأحياء بما هو ملائم لطبيعة المعاني.

الاستعارة: جاءت خطب الإمام موشحة بالاستعارات من خلال العلاقات الجديدة التي اقامها الإمام بين الالفاظ، وذلك نابع من استيعابه لاسلوب القرآن الكريم الذي امده بهذا النمط من الأداء. وكثر التصوير بالاستعارة كثرة بينة في خطب الحرب، ولقد كانت الاستعارة المكنية ذات نصيب وافر، فجمال الاستعارة عند الإمام يرجع إلى انها تصور المعنى تصويراً يحقق الغرض، فهي من اساليب الصور الفنية التي تجمع إلى جنب العمق في نقل اللفظ اضافة المعنى الحس والحياة.

الكناية: وجدناها زاخرة بالحياة والتصوير، فقد اختار الإمام □ من الالفاظ والعبارات ما يرى فيها قوة ووضوحاً لتفعل فعلها في نفوس اصحابه وخصومه على السواء.

□ الفصل الثالث: ودرسنا في طياته وظائف الأداء البياني، وقد جاءت في ثلاثة مباحث:
الوظيفة النفسية: جاءت متبينة في ظاهر كلام الإمام □ من حث على القتال، ونقد وتعريض، وعتاب وتقريع، فضلاً عن التشجيع وبث الروح المعنوية، لكنها تتفق في جوهرها لأجل التوضيح والاقناع بالافهام والمنطق.
فقد عمدَ الإمام إلى اتباع طرائق عدة في التأثير في نفسية اصحابه ومن ثم جاءت خطبه الحربية مزيجاً من الأدب مع النفس الانسانية حساً وفكراً وعاطفة.

الوظيفة العقلية: وما جاء في هذا المبحث هو ما ورد ضمن خطب الحرب من نصوص عرض فيها الإمام حججه وبراهينه، للتحريض على القتال والحرب والجهاد في سبيل الله، فقد جعل □ العقل بين يدي الادلة التي اراد تسخيرها إلى الهدف المقصود، وهدف الإمام هو الوصول بالمستمعين إلى درجة التصميم على العمل. والامام □ استطاع ببلاغة ناصعة جلاء المعاني والكشف عن الحجة والايحاء باعمق الحقائق فضلاً عن قوة ادراكه.

الوظيفة الدينية: ارتكزت خطب الإمام عامة وخطب الحرب خاصة على التعاليم الاسلامية الفذة، يورد في خطبه الحربية الايات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وكل المعاني الاسلامية التي تساعد على اضرام نار الحماسة في صدور اصحابه للذود عن الدين ونشر لوائه، وقد تجلت هذه الوظيفة بظاهرتين بارزتين :

(أ) ظاهرة الدعاء.

(ب) ظاهرة الحث على الجهاد.

وهكذا نخرج من هذا البحث ان نثر الإمام علي بن ابي طالب □ -خطب الحرب- تشهد قوة تعبيره سلاحاً في المعركة، فالخطابة كانت وسيلة في الاقناع والتأثير، ومن ثم كانت ذات تأثير كبير في الأدب العربي، وفي من جاء بعده من شعراء وخطباء، فقد نهلوا من اسلوبه في صياغة العبارة والصورة وتوليد المعاني وتكثيرها. فضلاً عن المواعظ والحكم التي كانت ترفد كتب الأدب العربي.

[فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ](الرعد/١٧)

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الابداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري – ثائر حسن جاسم – الطبعة الأولى – دار الرائد العربي- بيروت - لبنان ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- الاتقان في علوم القرآن- للحافظ جلال الدين السيوطي – (ت ٩١١هـ) – تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري – ابتسام مرهون الصفار- اليرموك- بغداد – ١٩٧٤.
- احكام صنعة الكلام – لذوي الوزارتين ابي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الاشبيلي الأندلسي، أحد اعلام القرن السادس الهجري- تحقيق: محمد رضوان الداية – دار الثقافة – بيروت – مطبعة النجوى- لبنان – ١٩٦٦.
- الأدب العربي في الجاهلية والإسلام – عمر رضا كحالة – المطبعة التعاونية – دمشق – ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
- الأدب في موكب الحضارة – مصطفى الشكعة- مصر – المطبعة الفنية – ١٩٦٨م.
- الأدب وفنونه – د. محمد مندور- الطبعة الثانية – دار نهضة مصر – الفجالة .
- أسرار البلاغة – الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن ت ٤٧١هـ)- تحقيق: هلموت ريتز – الطبعة الثالثة – دار المسيرة – بيروت – ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – د. مجيد عبد الحميد ناجي- الطبعة الأولى – مطبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- الاسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الاساليب الأدبية – أحمد الشايب – الطبعة السادسة – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٦٦م.
- اصول البيان العربي ، رؤية بلاغية معاصرة – د. محمد حسين علي الصغير – مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٦م.
- الأصول الفنية للأدب – عبد الحميد حسن – مكتبة الانجلو المصرية – ١٣٦٨هـ- ١٩٤٩م. مطبعة العلوم - القاهرة .
- اضواء على السنة المحمدية – محمود ابو رية – الطبعة الأولى – دار التأليف – مصر – ١٣٧٧هـ- ١٩٥٨م

- اعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي – الطبعة السادسة – مطبعة الاستقامة – مصر – ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.
- الاغاني – لأبي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني (ت٣٥٦هـ) – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
- الإمام علي ومدرسة القرآن – د. نعمة هادي الساعدي – النعمان – النجف – ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- الامامة والسياسة – لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) - المعروف بتاريخ الخلفاء - تحقيق: الدكتور طه محمد الزيني – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.
- الايضاح في علوم البلاغة / المعاني والبيان والبدیع – لأبي عبد الله جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) - تحقيق: لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر - اعادت طبعه بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد – مطبعة السنة النبوية – القاهرة.
- البحث البلاغي عند العرب – د. احمد مطلوب – الموسوعة الصغيرة (١١٦) - منشورات دار الجاحظ للنشر – بغداد ١٩٨٢م.
- البديع – عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ) – تحقيق: اغاطيوس كراتشوفسكي - مطبعة مكتبة المثنى – بغداد – ١٩٦٧م.
- بديع القرآن- ابن ابي الأصبع (عبد العظيم عبد الواحد المصري – ت٦٥٤هـ) - تحقيق: د. حفني محمد شرف - الطبعة الثانية – دار نهضة مصر – القاهرة .
- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الزركشي (ت٧٩٤هـ) - تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم – دار احياء الكتب العربية – القاهرة – ١٩٥٧م.
- البلاغة والتطبيق – د. احمد مطلوب و د. كامل حسن البصير – الطبعة الثانية – مطابع دار الحكمة – بغداد – ١٩٩٠م.
- البلاغة العربية ، المعاني والبيان والبديع – د. احمد مطلوب – الطبعة الأولى - مطبعة دار الكتب – بغداد ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- بلاغة القرآن الكريم – احمد احمد بدوي – لجنة البيان – مصر – ١٣٧٠هـ.

- بناء الصورة الفنية في البيان العربي- د. كامل حسن البصير – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- البيان والتبيين – لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) - تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون – الطبعة الخامسة – دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- التاج الجامع للأصول في احاديث الرسول – للشيخ منصور علي ناصف – الطبعة الثالثة – دار احياء التراث العربي- بيروت- ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- تاريخ الأدب العربي -احمد حسن الزيات – الطبعة الاربع والعشرون-دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة.
- تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار – دار المعارف المصرية
- تاريخ الأدب العربي / العصر الاسلامي- د. شوقي ضيف- الطبعة الخامسة – دار المعارف- مصر – ١٩٦٣م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)- لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)- تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم – ط٥- دار المعارف – مصر – القاهرة – ١٩٨٧م.
- التصوير الفني في القرآن – سيد قطب – الطبعة الثالثة – دار المعارف – مصر – ١٩٥٦.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن / دراسة دلالية مقارنة – عودة خليل ابو عودة – الطبعة الأولى – مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- التعبير القرآني- د. فاضل صالح السامرائي – بيت الحكمة – بغداد ١٩٨٦-١٩٨٧م.
- التفكير البلاغي عند العرب / اسسه وتطوره إلى القرن السادس – حمادي صمودا – منشورات الجامعة التونسية – السلسلة السادسة – مجلد ٢١ - المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية – ١٩٨١م.
- تلخيص الخطابة – ابن رشد – حققه وقدم له : عبد الرحمن بدوي – دار القلم – بيروت – لبنان.
- التلخيص في علوم البلاغة – لجلال الدين محمد عبد عبد الرحمن الخطيب القزويني – شرح: عبد الرحمن البرقوقي – الطبعة الثانية – المكتبة التجارية – القاهرة – ١٩٣٢م.
- تهذيب الأحكام – لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) – تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان- الطبعة الثانية- دار الكتب الاسلامية – مطبعة النعمان – النجف – ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

- الجمان في تشبيهات القرآن / ابو القاسم عبد الله بن محمد بن نايقا البغدادي (ت ٤٨٥هـ) - تحقيق: د. احمد مطلوب ود. خديجة الحديثي - دار الجمهورية - بغداد - ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
- جواهر البلاغة / في المعاني والبيان والبديع - احمد الهاشمي - الطبعة الثانية عشرة - المكتبة التجارية الكبرى - مصر - ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية - محمد ضاري صمادي - الطبعة الأولى - بيروت - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- حسن التوسل إلى صناعة التوسل - شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) - تحقيق ودراسة: اكرم عثمان يوسف - دار الرشيد للنشر - دار الحرية للطباعة - بغداد - ١٩٨٠م.
- حسن الصنيع في علم المعاني والبيان والبديع - الشيخ محمد البسيوني البياتي - الطبعة الأولى - المطبعة المحمودية التجارية - مصر.
- الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام - محمد عبد المنعم الخفاجي - الطبعة الأولى - مكتبة الحسين التجارية - ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م.
- حياة أمير المؤمنين في عهد النبي - محمد صادق الصدر - الطبعة الثانية - دار الكتب - بيروت - ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- الحيوان - ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - الطبعة الثانية - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- الخصائص - ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) - تحقيق: محمد علي النجار - الطبعة الرابعة - مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ١٩٩٠م.
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي - احسان النص - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٢م.
- الخطابة في صدر الاسلام / العصر الديني - عصر البعثة الاسلامية - د. محمد طاهر درويش - دار الجيل - مصر - ١٩٦٧م.
- الخطب والمواعظ - محمد عبد الغني حسن - الطبعة الثانية - دار المعارف - مصر - ١٩٦٨م.

- دلائل الاعجاز في علم المعاني – الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) - صحح اصله الإمام محمد عبده والشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي – تصحيح طبعه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا – مكتبة القاهرة – مصر – ١٣٨١هـ – ١٩٦١م.
- روائع نهج البلاغة – جورج جرداق – دار الشروق – بيروت – ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
- سر الفصاحة – عبد الله بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ) - صححه وعلق عليه: عبد المتعال الصعيدي – مطبعة محمد علي صبيح – مصر – ١٣٧٢هـ – ١٩٥٢م.
- سنن ابي داود – للإمام الحافظ ابو داود سليمان بن الاشعث بن اسحاق الأزدي السجستاني – تعليقات الأستاذ الشيخ احمد سعد علي من علماء الأزهر الشريف – الطبعة الأولى - شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م.
- شرح ديوان الحماسة – لأبي علي احمد بن محمد بن الحسين المرزوقي (ت ٤٢١هـ) – نشره: احمد امين وعبد السلام هارون – الطبعة الثانية – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م.
- شرح صحيح البخاري – لمحمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) - محمد بن يوسف الكرمانى – مطبعة البهية – مصر – ١٣٥٨هـ.
- شرح نهج البلاغة – عز الدين عبد الحميد بن ابي الحديد المدائني (ت ٦٥٦هـ) - تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم – الطبعة الأولى – دار الجيل – بيروت – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم – لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - عيسى البابي – مصر – ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م.
- الصورة الفنية في المثل القرآني / دراسة نقدية وبلاغية – د. محمد حسين علي الصغير – دار الرشيد للنشر – ١٩٨١م.
- طبقات فحول الشعراء – محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) - قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر: مطبعة المدني - العباسية – القاهرة – ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
- الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز – ليحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي (ت ٧٤٩هـ) - تصحيح : سيد بن علي المرصفي – مطبعة المقتطف – مصر – ١٣٣٢هـ – ١٩١٤م.

- الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الأموية – احسان سركتيس – الطبعة الأولى – دار الطليعة – بيروت – ١٩٨١م.
- عبقرية الشريف الرضي (ت ٤٠٦) – زكي مبارك – دار الجيل – بيروت – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- عصر القرآن – محمد مهدي البصير – الطبعة الثالثة – دار الشؤون الثقافية – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٨٧م.
- العقد الفريد – لابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ت ٣٢٧هـ) - تحقيق : محمد سعيد عريان – الطبعة الثانية – مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م.
- علم البيان ، دراسة تاريخية وفنية في اصول البلاغة العربية – د. بدوي طبانة – الطبعة الثانية – مكتبة الانجلو المصرية – المطبعة الفنية الحديثة – ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م.
- علي والقرآن – محمد جواد مغنية – دار الأندلس – بيروت – ١٩٦٠م.
- العمدة ، في محاسن الشعر وأدابه ونقده- لابن رشيق ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني وابن الازدي (ت ٤٥٦هـ)- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد – الطبعة الرابعة – مطبعة دار الجيل – بيروت – ١٩٧٢م.
- العمل الأدبي – لحسن الشيرازي – قدم له: فؤاد افرام البستاني – دار الصادق – بيروت.
- عيار الشعر- لمحمد بن احمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ)- تحقيق: د. طه الحاجري ود. محمد زغلول سلام – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – ١٩٥٦م.
- فن الخطابة – د. احمد محمد الحوفي – الطبعة الرابعة – مطبعة دار نهضة مصر – الفجالة – القاهرة .
- فن الخطابة وتطوره عند العرب – ايليا الحاوي – دار الثقافة – بيروت – لبنان.
- في الأدب والبيان -د. محمد بركات حمدي ابو علي – دار الفكر والنشر والتوزيع – عمان – ١٩٨٤م.
- في دائرة النقد اللغوي – يوسف نمر ذياب- الطبعة الأولى – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٨٨م.
- في ظلال نهج البلاغة / محاولة لفهم جديد – شرح محمد جواد مغنية – الطبعة الثانية – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٧٨م.
- في النقد الأدبي – د. شوقي ضيف- الطبعة الثانية – مطبعة دار المعارف – مصر.
- في النقد والأدب، مقدمات جمالية عامة ومقطوعات من العصر الاسلامي والاموي- ايليا الحاوي – الطبعة الرابعة – دار الكتاب اللبناني – بيروت – ١٩٧٩م.

- القرآن والصورة البيانية – د. عبد القادر حسين – عالم الكتب – ١٣٨٣هـ – ١٩٧٥م.
- قضية الاسلام والشعر – ادريس الناقوري – الطبعة الثانية – دار الشؤون الثقافية – آفاق عربية – بغداد – ١٩٨٦م.
- الكافي – محمد بن يعقوب الكليني الرازي (ت ٣٢٩هـ) – صححه وقابله وعلق عليه : علي اكبر الغفاري – مطبعة حيدري – ١٣٧٥هـ.
- الكامل في التاريخ – للإمام عمدة المؤرخين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بأبن الأثير الجزري ، الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ) – الطباعة المنيرية – مصر – ١٣٥٦هـ.
- الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف – لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦هـ) – تحقيق: احمد محمد شاکر – مطبعة عيسى البابي – مصر ١٣٥٥هـ.
- كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، دراسة وتحليل – د. عبد الرزاق ابو زيد زايد – الناشر: مكتبة الانجلو المصرية – ١٩٧٦م.
- كتاب الصنائع ، الكتابة والشعر – لابي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ) – تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم – الطبعة الثانية – عيسى البابي – القاهرة – ١٩٧١.
- لسان العرب – لابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١هـ) – دار صادر ودار بيروت – لبنان – ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م.
- مباحث في علوم القرآن – د. صبحي الصالح – الطبعة العاشرة – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ١٩٧٧م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ) – تحقيق: د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة – الطبعة الأولى – دار نهضة مصر – الفجالة – القاهرة – ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩م.
- المجازات النبوية – محمد بن الحسين الشريف الرضي – (ت ٤٠٦هـ) – تحقيق: محمود مصطفى – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧هـ.
- مجاز القرآن، خصائصه الفنية وبلاغته العربية – د. محمد حسين علي الصغير – الطبعة الأولى – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٩٤م.

- المجاز في البلاغة العربية – د. مهدي صالح السامرائي – الطبعة الأولى – دار الدعوة – حماة – سورية – ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- المجاز وأثره في الدرس اللغوي – د. محمد بدوي عبد الجليل – دار الجامعات المصرية – الاسكندرية – ١٩٧٥م.
- مجمع الأمثال – لأبي الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابراهيم النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ) – حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه : محمد محي الدين عبد الحميد – الطبعة الثانية – مطبعة السعادة – مصر – ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩م
- مجمع البيان في تفسير القرآن – للشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) - تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي – مطبعة دار أحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م.
- مسند أحمد – لأحمد بن محمد بن حنبل الشيباني – تحقيق: احمد محمد شاكر - دار المعارف – مصر – ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م.
- مع نهج البلاغة ، دراسة ومعجم – د. ابراهيم السامرائي – الطبعة الأولى – دار الفكر للنشر والتوزيع – عمان – ١٩٨٧م.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – د. احمد مطلوب – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي – عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل – رتبه ونظمه: د. أ.ي. ونسك – مكتبة بريل – مدينة ليدن – ١٩٣٦
- مفاتيح الغيب – فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦هـ) – دار الطباعة العامة – استانبول – ١٣٠٧هـ.
- مفتاح العلوم -يوسف بن ابي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ) – ضبطه وكتب هوامشه : نعيم زرزور – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- مقدمة في النقد الأدبي – د. علي جواد الطاهر – بيروت – ١٩٧٩م.
- من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم – د. عثمان موافي – مؤسسة الثقافة الجامعية – الاسكندرية

- الموجز في الأدب العربي وتاريخه، الأدب العربي القديم – حنا الفاخوري – الطبعة الأولى – دار الجبل – بيروت – ١٩٨٥م.
- نحو أدب اسلامي- عبد الهادي الفضلي – مطبعة الآداب – النجف – ١٣٩١هـ.
- نظرية الأنواع الأدبية / تأليف M.L'abb'e –ci . Vincent – ترجمة: د. حسن عون- الناشر: منشأة المعارف- مطبعة مصنع الأسكندرية للكراس- ١٩٧٧م.
- النقد الأدبي الحديث- د. محمد غنيمي هلال – دار نهضة مصر للطبع والنشر – الفجالة – القاهرة.
- نقد الشعر – ابو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) – تحقيق: كمال مصطفى – مطبعة مكتبة الخانجي – القاهرة – ومكتبة المثنى – بغداد – ١٩٦٣م.
- النقد العربي القديم، بين الاستقراء والتأليف – د. داود سلوم – الطبعة الثانية – الناشر مكتبة الأندلس – بغداد – ١٩٧٠م.
- نقد النثر – المنسوب لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي – تحقيق: طه حسين وعبد الحميد العبادي – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٥١هـ- ١٩٣٣م
- النكت في اعجاز القرآن – ابو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ)- ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن- تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام- دار المعارف – مصر
- نهاية الايجاز في دراسة الاعجاز – ابو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي – الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) – تحقيق: د. ابراهيم السامرائي ومحمد بركات حمدي ابو علي – دار الفكر – عمان- ١٩٨٥م.
- نهج البلاغة – شرح محمد عبده – مؤسسة الاعلمي للمطبوعات- بيروت- لبنان.
- نهج البلاغة – ضبطه وابتكر فهارسه العلمية: د. صبحي الصالح – الطبعة الأولى – بيروت – ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

الرسائل

- التصوير الفني في خطب الإمام علي □ - عباس علي حسين الفحام - رسالة
ما جستير، كلية التربية - جامعة الكوفة ١٩٩٩.